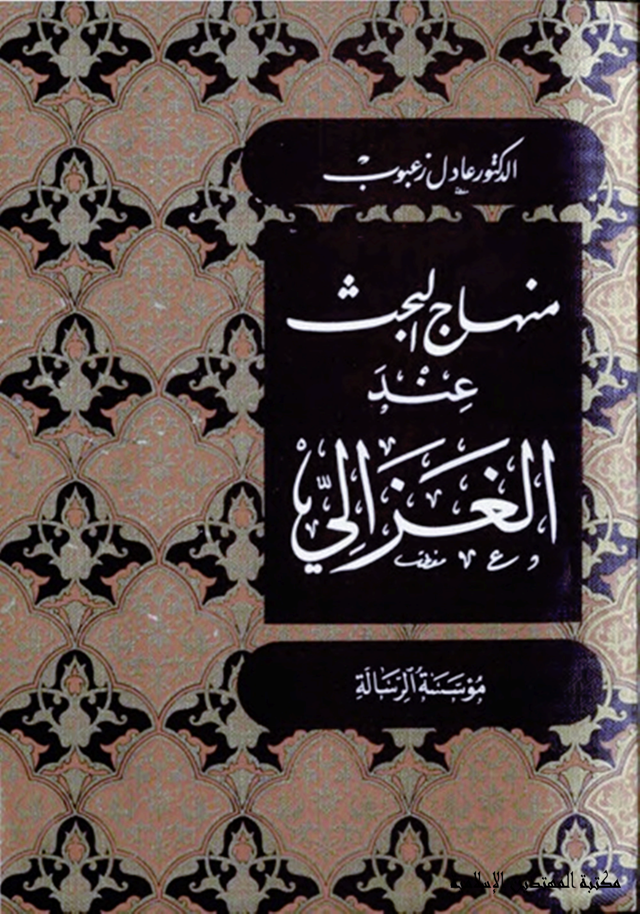
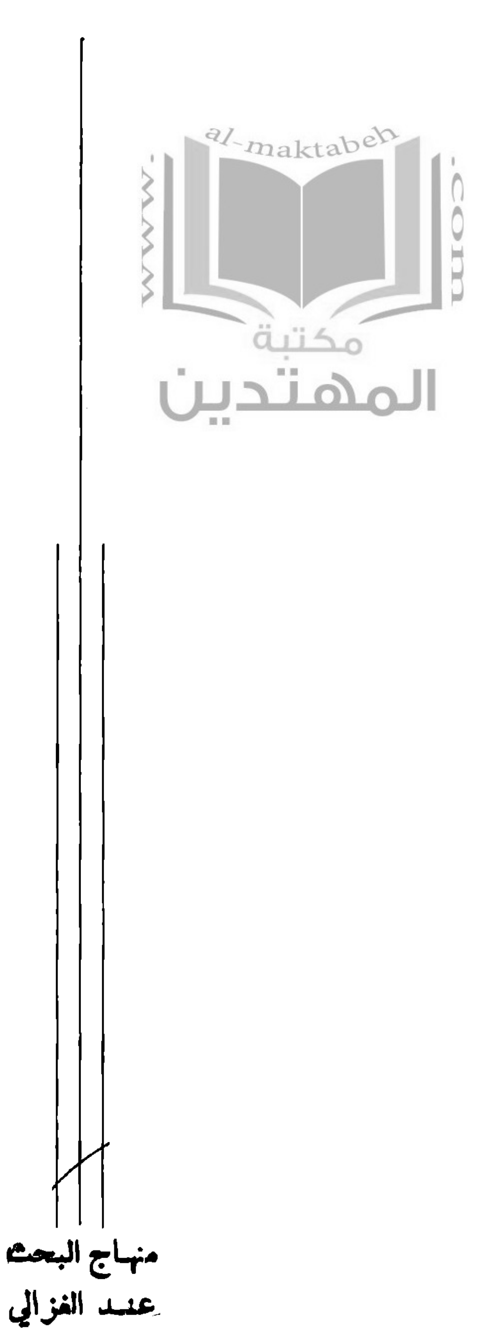

الدكتور عادل زعبوب
منهاج البحث
عند
الغزالي
مؤسسة الرسالة
مكتبة المهتدين الإسلامية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



منهاج البحث
عند الغزالي



ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ

تاليف

الدكتور عادل زعبوب



منشورات مؤسسة الرسالة

الطبعة الاولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

مؤسسة الرسالة

بيروت شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

هاتف : ٢٩٥٥٠١ - ٢٤١٦٩٢ - ٣١٩٠٣٩ ص. ب ٧٤٦٠

برقياً : بيوشران

الإهـــداء

لذكرى المرحوم عمي محمد سليم السمان

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه لمن الأمور الشاقة حقاً أن نكتب بمجمل تاريخ فيلسوف يعتبر حجة دينه ، ونابغة عصره ، ومجدد الإسلام . وفي ذلك يعود المؤرخون إلى حديث أُسند إلى أبي هريرة حيث قال : « إن الله تعالى ليبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » وهكذا قيل : إنه في المئة الأولى كان عمر بن عبد العزيز ، وفي المئة الثانية الشافعي ، وفي المئة الثالثة الأشعري ، وفي الرابعة الباقلاني ، أما في الخامسة ، فهو حجة الاسلام الإمام الغزالي .

والغزالي قد حلّق وأبدع في كل ما كتب حتى قيل عنه : إنه موسوعة عصره ، وفي ذلك يقول مصطفى المراغي : « إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة » فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الاسلام ، وإذا ذكر ابن العربي خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها ، وإذا ذكر البخاري وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال . أما إذا ذكر الغزالي ، فقد تشعبت النواحي ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدرته وقيمته ، يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق ، الماهر ، والغزالي الفقيه

الحر ، والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها ، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم ، وخفيات الضمائر ، ومكنونات القلوب ، والغزالي الفيلسوف أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المربي ، والغزالي الصوفي الزاهد ، وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة »[1] .

هذا هو الغزالي الذي نكتب هذا البحث المتواضع عنه ، مع أنه لا يشفي غليل المتعطش لمعرفة الغزالي ككل ، ولكنه على أية حال يساهم مساهمة فعالة في سبر غور فلسفته حيث إنه « دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر »[2] .

(١) مقدمة لكتاب احمد فريد الرفاعي ـ القاهرة ص ٩

(٢) أورده عبد الرحمن بدوي في (دور العرب في تكوين الفكر الاوربي) عن ابن العربي ص ١٥٠

الفصل الأول

حياة الغزالي ووفاته

١ - مولده وتعليمه :

ولد الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي في منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠ هـ - ١٠٥٩ م) في مدينة (طوس) من أعمال (خراسان) . وكان والده رجلاً فقيهاً ، لا يأكل إلا من كسب يديه في عمل غزل الصوف ، ومن هنا جاء الالتباس في اسم الغزالي ومصدره . ففي بعض الروايات - تكتب مشددة نسبة إلى صناعة أبيه - صناعة غزل الصوف ، وفي روايات أخرى تكتب مخففة نسبة إلى غزالة وهي قرية صغيرة من قرى (طوس) مسقط رأسه - وكانت تتألف كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان - من ألف قرية . وكان والد الغزالي دائم التردد على المتفقهة - يجالسهم ويبالغ في خدمتهم - وذلك لشدة ورعه من جهة ، حيث كان رجلاً صالحاً تقياً ، ولشدة ولعه بالفلسفة من جهه أخرى . وكان إذا سمع كلام المتفقهة بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ولداً ، ويجعله فقيهاً واعظاً ولكن هل تستمهل المنية الأب ليرى ابنه وقد تحققت فيه أمنيته ؟ بالطبع لا ، لأن الموت قلما يدع الانسان يرى أمنياته وقد تحققت ، وهكذا توفي الأب وعود ابنه لم يشتد بعد ، ومن شدة حرص الأب على تعليم

وتثقيف وتهذيب ولديه جعله يوصي بهما إلى صديق له متصوف أوصاه بأن يتعهدهما بالتربية والنشأة الصالحة الخيرة ومما قاله الأب للمتصوف: « ما كنت لأتأسف على شيء من الدنيا، كأسفي على الخط، وكيف لم يكن لي من معلمين، وقد استدركت بعض ما فاتني في نفسي من ذلك، وأحب منك أن تتم لهما ما عليهما، ولا عليك ألا يقع لهما شيء بعد تعلمهما »[1]. وقد ترك الأب لصديقه الصوفي ما كان في حوزته من نقود. ولكن هذه النقود كانت قليلة فما لبثت أن نفدت، وكذلك نفدت نقود الوصي أيضاً، حيث كان بدوره فقيراً، فكتب لهما: « اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ليس لي مال فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما »[2]. وهكذا التحق أبو حامد وأخوه أحمد بمدرسة من مدارس ذلك العهد التي كانت تمد الوافدين إليها بالعون، وهذا يقودنا للحديث عن المدارس النظامية.

٢ ـ المدارس النظامية:

سميت بالنظامية نسبة إلى نظام الملك، وهذا كان وزيراً للسلطان ألب أرسلان حيث بقي في خدمته مدة عشر سنوات، وبعد وفاة ألب أرسلان لبس نظام الملك السلطان إلا « التخت والصيد » اهتم نظام بالحديث والفقه، وكان كثير الإنفاق على الصوفية، وكان شديد الورع حتى كان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه. كان ينفق سنوياً ٦٠٠ الف دينار على

---

(١) أوردها أحمد الرفاعي عن المقريزي في كتابه عن الغزالي القاهرة ص ٥٨

(٢) أوردها محمد رضا في كتابه أبو حامد الغزالي القاهرة ص ٩

المدارس ، وذلك لتأييد مذهب السنة ، وقد أكثر منها ووقف عليها الأوقاف ولهذه المدارس الفضل الكبير على إمامنا الغزالي ، فقد تلقى العلم في نيسابور وتولى التدريس في مدرسة بغداد .

أنى للإنسان أن يهرب من كلام الوشاة الذين يختلقـــون الأكاذيب للإيقاع بين الأخ وأخيه ، فكيف لايستطيعون الإيقاع بين الملك ووزيره بين نظام الملك والملك ، ومما قالوه للملك « إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك - يعنون في التعليم - يقيم جيشاً يركز رايته في سور القسطنطينية» فعاتب ملك شاه نظام الملك بذلك ، فأجابه الأخير : (وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماها إلى ٣٠٠ ذراع وهم في ذلك مستغرقون في المعاصي ، والخمور والملاهي ، والمزمار والطنبور . وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون) فقبل ملك شاه وسكت ، ومما يذكره الكتاب أن نظام الملك قد توفي عام (٤٨٥ هـ) .

والآن لنعود إلى سرد سيرة الإمام الغزالي الذي درس في هذه المدارس المذكورة على يد أساتذة اشتهروا بالتدين والصوفية منهم (يوسف التاج) الذي صار فيما بعد إمام الحرمين . لقد أخذ الموت الأب ، وترك الأم تشاهد ما كان يتمناه الأب - إذ شهدت والدة الغزالي - بزوغ شمس ابنها في سماء المجد وتبوئه أسمى مركز علمي في ذلك العهد .

لم يكتف الغزالي مما تعلمه في طوس من مبـــادىء الصرف والنحو

العربيين ، واللغة الفارسية وحفظ القرآن ، ومبادىء اللغة ، بل أراد الاستزادة ، لذا غادر طوس إلى جرجان حيث درس فيها على يد الشيخ الإسماعيلي .

حياة المفكر تطوره الداخلي ، وحوادثها ، حالاته النفسية ، وحياة الغزالي تطور مستمر جارف غني بالحالات النفسية والحوادث الداخلية ، فلا تكاد تمر حادثة دون أن يستفيد منها ودون أن تطبع في نفسه حب المعرفة والشغف بالعلم . فعند عودة « حجة الإسلام » من جرجان إلى طوس ، تصدى له على الطريق جماعة من اللصوص ، وجردوه مما كان معه ، ولكنه طلب منهم فقط إعادة الكتب ، وظل مصراً على طلبه هذا رغم ما كان يتعرض له من خطر ، وقال مسترحماً اللصوص هذه الكتب لا تنفعكم هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك لص خبيث وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها ، وبقيت بلا علم ، وسلمه الكتب ، وعندما وصل الغزالي إلى طوس حفظ جميع محتويات الكتب في ظرف سنوات ثلاث ، وذلك حتى لا يتجرد من علمه لو قطع عليه الطريق مرة ثانيه [1] . الذين انتقدوا الغزالي عابوا عليه الاعتماد في الحفظ على الاستظهار ، لكن هناك من دافع عنه ، وقالوا : إنه كان يحفظ المعنى ، ولا يستظهر اللفظ ، ما يهمنا نحن من هذه الحادثه هو أنه عرف منذ شبابه الباكر قيمة الكتب ولذا جاءت مؤلفاته تربو على الـ ٣٠٠ .

في عام ٤٧٣ هـ . ذهب الغزالي إلى (نيسابور) التي تقع على مسافة ٤٩ ميل غربي طوس . وهناك اتصل بإمام الحرمين في ذلك الوقت (ضياء الدين الجويني) رئيس المدرسة النظامية ، وهذه مرحلة تحول في تاريخ الغزالي

---

(١) المنقذ من الضلال ـ تأليف الغزالي .

الفكري ، إذ وجد إمامنا في هذه المدرسة كل ما كان يتعطش إليه من فنون المعرفة ، ووجد في رئيسها المدرس الضليع والبحر المليء باللآلىء ، فحرص على صحبة هذا الكنز الوفير ، ولم يفرط في هذه الصحبة حتى أخذت المنية الأستاذ الكبير ، وفرقت بين الأساطين : هناك من يقول بأن الوحشة قد نرت بقرنيها بين التلميذ والاستاذ ، ولكن كل ما وصلنا يدل على أن الصحبة دامت حتى ممات الأستاذ .

هناك في نيسابور كانت أخصب أيام الغزالي ، ففيها درس المنطق وأصوله وعرف مناهج الفلاسفة واختلافاتها وتعلم الجدل وأساليبه وتهيىء للتأليف .

في عام ٤٧٨ هـ . توفي إمام الحرمين ـ وبوفاته فقد الغزالي البحر المليء بالجواهر الذي كان يمده بكل صنوف المعرفة ـ وهكذا خرج من (نيسابور) قاصداً نظام الملك ، وكان في ذلك الحين متزوجاً وله من البنات ثلاثة ، أما حامد الذي يكنى به ، فقد أخذته المنية في طفولته . وفي عام ٤٨٤ هـ ولاه نظام الملك التدريس في مدرسته النظامية ببغداد عاصمة العالم الإسلامي في الشرق ، فتكون بذلك المدة التي قضاها في المعسكر خمس سنوات .

خمس سنوات ليست قصيرة ـ ولا يمكن أن تذهب هكذا سدى ـ يجب أن تستغل إلى أبعد الحدود ، هل من المعقول أن يهدر فيلسوف مبجل كالغزالي هذا الزمن الطويل دون أن يستفيد منه ؟ ما لنا ملاذ غير التاريخ نلجأ إليه لعله ينبئنا ويشفي غليلنا . ولكن التاريخ ، كما يقول سليمان دنيا ، قد أمسك عن الإجابة عن هذا السؤال ، وهذه فجوة في تاريخ الغزالي حملت زويمر على أن يقول : « إن تاريخ الغزالي محوط بالأمور المربكة فهناك بعض الغموض في تاريخ سنواته وترتيبها الزمني ، بل وخلاف في

أسماء الأماكن التي جابها » . [1] كما ذكرنا أعلاه لقد اختار نظام الملك الغزالي رئيساً لأكبر مدرسة في ذلك العهد ، لذلك فمن المرجح أن يكون إمامنا قد قضى هذه الفترة في المناقشة ومطارحة الآراء مما حدا بنظام الملك لاختياره ، ومن المؤكد أن نظام الملك قد افتتن بقوة حجة الغزالي ووضوح أدلته ؛ لذا اختاره وفضله على غيره . وهناك سبح الغزالي في بحر الفلسفة « فشمرت عن ساعد الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ » [2] .

عام ٤٨٨ هـ هجر الإمام بغداد مدعياً الحج ، لكن ما الذي حدا به للخروج من بغداد ؟ لقد كان في بحبوحة من العيش ومركز علمي مرموق ، وقد اتسعت حلقات دروسه واشتهر بفتاواه الشرعية ، وكانت حياته يومئذ حياة طمأنينة ودعة . وإنه كذلك إذ أصيب فجأة بمرض طارىء ، وحلت به علة مجهولة غريبة ، حتى عجز لسانه عن النطق ، وجافى الطعام فلا يستمرؤه ، وبطلت معه قوة هضمه ، وحتى أيأس من شفائه الأطباء ولا رجاء في حياته « إذا لم يتروح السر عن الهم الملم » ويتابع الغزالي سرد حالته ، في ذلك الوقت ، غادر بغداد قاصداً الحج بعد أن أناب أخاه أحمد على المدرسة النظامية ، وترك كل ما كان يملكه فلم يحمل معه إلا ما يكفي لقوته ، حتى الان لا نعلم ما حدث للغزالي ، وما سبب المرض المفاجىء الذي حل به ، لكن نريد أن يخبرنا عن سبب اعتزاله وهجره لبغداد . يجيب الغزالي عن هـذا التساؤل وكأنه علم به قبل حدوثه « ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار

---

(١) أورده سليمان دنيا في كتابه الحقيقة في نظر الغزالي القاهرة ١٩٤٧

(٢) المنقذ من الضلال .

الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ، يناديني : الرحيل ، الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار»[1]واستمر تردده بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر بعدها التجأ الغزالي إلى الله ليغيثه ، الله « الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، فسهل علي الإعراض عن الجاه ، والمال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام »[2] هذا هو سبب ترك الغزالي لبغداد ـ كما ذكر في المنقذ ـ وهو يحيل السبب لثورة نفسية استحوذت عليه ونزعة جديدة تمكنت منه . لكن البارون كارادوفو لا يوافق الغزالي على تعليله هذا ، ويذهب الى أن الرغبة في الصوفية لا يمكن أن ينظر اليها في ذلك الحين بالذات كدافع أساسي لخروجه من بغداد : « كلا لا أرى الغزالي مر في هذه المراحل المتعاقبة قبل أن يبصر حل مسألة الحياة حلاً صوفياً ، وهو إذ عني به صوفي في صباه ، وأحاط به

---

(١) المصدر ذاته .

(٢) عين المصدر .

أناس أتقياء منذ نعومة أظفاره ، كان من الجلي نشوؤه مستعداً للنسك والتأمل ، ولم يكن ما اتفق له من تحول حين ترك كرسي تدريسه أمراً عقلياً ، بل شيئاً خلقياً ، ولم يكن كاشفاً للتصوف في ذلك الوقت بل تبتل اليه »[1] . لكن مكدونالد يرى أن سبب الخروج سياسي ؛ والحق أن الغزالي لم يكن بعيداً عن الحياة السياسية في عهده حيث تقلد مناصب سياسية عديدة .

٣ ـ حال دمشق أيام الغزالي

ترك الغزالي بغداد ليقيم في الشام ، على الحال يتبادر إلى ذهننا السؤال الآتي : لماذا فضل الغزالي المقام في الشام ؟ هل كان لها مكانة خاصة في ذلك العهد ؟ خالد معاذ يجيبنا عن هذا التساؤل فيقول : « اشتهر عن الشام أن حياة الزهاد المتعبدين ، والمتصوفة فيها ميسورة موفورة ، وأسباب العزلة والاعتكاف متوفرة ، ولا سيما أن الغزالي لم يسبق له أن قام في دمشق علائق تعيقه عن غاياته في التعبد والتصنيف كما أعاقته بغداد ، حيث يربطه بها علائق ظهر له أخيراً أنها ليست نافعة في طريق الآخرة ، علائق تحول بينه وبين الانقطاع إلى هواه العميق : العبادة والتصوف»[2] . غادر الغزالي بغداد في ١ محرم ٤٨٩ هـ والرحلة تستغرق في ذلك الزمان ٤٠ يوماً ، فيكون إذن قد دخل دمشق قبيل أو بعيد ١٥ صفر ٤٨٩ هـ كما ذكرنا سابقاً كانت الشام ذائعة الصيت في المشرق والمغرب ، وكان

---

(١) البارون دي كارادوفو في كتابه عن الغزالي ترجمة عادل زعيتر ص ٤٩

(٢) مهرجان الغزالي في دمشق في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ١٩٦١م-١٣٨٠هـ مقال خالد معاذ ص ٤٨٥

الناس يقصدونها من أربعة أطراف العالم الإسلامي لشهرتها هذه في الجاهلية والإسلام ، ولكونها ينبوعاً من أهم ينابيع العلم والمعرفة في الإسلام . فكانت قبلة طالبي العلم في فروعه كافة ولا سيما القراءة والحديث والتفسير والفقه (١) .

وجاء السلجوقيون إلى الشام واستمروا على رفع شأنها لأن عقيدتهم توافق اعتقاد الأكثرية ، ومن أكبر مآثرهم فيها إعادة بناء المسجد الأموي الذي كان قد احترق وتهدم عام ٤٦٢ هـ أي قبل دخولهم دمشق بثلاثة أعوام. وأثناء وجود الغزالي في دمشق جرت حركة نشاط عمراني وسياسي ، لكنه لم يكن يعير كل ذلك اهتمامه لأن هواه كان منصرفاً إلى التراث الديني ، لكن ما الذي استرعى انتباهه وكيف قضى أيامه فيها ؟ يجيبنا عن ذلك في المنقذ « وأقمت فيها ـ أي في دمشق ـ قريباً من سنتين لاشغل لي إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب ، لذكر الله تعالى كما حصلته من علم الصوفية » ولعله وتكملة لتزكية نفسه كان يتردد إلى أمكنة الزيارة وهي متعددة في دمشق مثل : كهف جبريل في قاسيون ، ومهد عيسى في الربوة ، ومقام إبراهيم في برزة ، وقبور الصحابة والتابعين والشهداء . وفي دمشق اعتكف الغزالي في المغارة الغربية من الجامع الأموي ، ولا تزال الزاوية التي اعتكف بها تسمى « الزاوية الغزالية » . بعد دمشق رحل الغزالي إلى بيت المقدس وأقام فيه فترة من الزمن .

« ثم تحركت في فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام » . يقول بعض الكتاب إن

---

(١) هذه الفقرة مستقاة من مقال خالد معاذ ـ في مهرجان الغزالي ١٩٦١ م

الغزالي وصل مصر وأقام في الاسكندرية ، ولكن في المنقذ لانجد سنداً لهذا الاعتقاد ، إذ لو زار الاسكندرية لكان ذكر اسمها على الأقل .

«ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن . . . فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية الذكر ، وكان لايصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة . . . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين »[1] .

بينما كان الغزالي يتعبد ويطلب النسك والوحدة رأى الفساد وقد استشرى ، وأن الشر كاد يودي بالعقائد ، فحدثته نفسه بالخروج عن العزلة ودعوة الخلق إلى الحق ، ولكنه لم يلبث أن رأى أن ذلك « لا يتم إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ، فترخصت بيني وبين الله بالاستمرار على العزلة تعللاً عن إظهار الحق » وهذا مأخذ أخذه زكي مبارك على (حجة الإسلام) إذ يقول بينما كان النساك في الغرب يحضون الجنود على القتال في المشرق ـ أثناء الحروب الصليبية ـ كان الغزالي منزوياً ، قابعاً لايكترث لما يجري حوله ، لكن دي بور ينظر إلى ذلك من ناحية أخرى فيقول : بينما كان الصليبيون في الغرب يتأهبون لمهاجمة الإسلام ، كان الغزالي يتهيأ لأن يكون بطلاً روحياً للدين الاسلامي .

في عام ٤٩٩ هـ عاد إلى نيسابور للتدريس فيها مرة ثانية ، ولكن شتان ما بين المرتين ، ففي المرة الأولى كان ينشر العلم الذي يكسب الجاه أما في المرة الثانية ـ وبعد طول تلك المدة التي قضاها في مسجد دمشق ، وفي مسجد الصخرة في القدس ، وفي بيت الله الحرام ـ كان طبيعياً أن تتغير نظرته إلى العلم . فأصبح يدعو إلى العلم « الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه » .

---

(١) المنقذ .

٤ ـ وفـــاة الغزالي

عـام ٥٠٣ هـ عاد الغزالي إلى طـوس ولم يبرحهـا وبنى بجوار داره مدرسة للفقهاء ومأوى للصوفية ، وبقي كذلك يدرس ويعظ حتى وافته المنية صبيحة يوم الاثنين ١٤ جمادى الثانية (٥٠٥ هـ . ديسمبر ١١١١) :
قال أبو الفرج ابن الجوزي : في كتاب « الثبات عند الممات » : « قال أحمد ـ أخ للامام ـ : لمـا كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلى وقال : علي بالكفن ، فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار . . . ولم يعقب إلا البنات ، حيث إن ولده حامداً كان قد توفي وهو لا يزال طفلاً ـ كما أوردنا سابقاً ـ وما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية . وقد عرضت عليه أموال فما قبلها ، وأعرض عنها واكتفى بالقدر الذي يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال أو منال من غيره »[١] .

ودفن الغزالي في مقبرة الطابران شرقي الحصن قريباً من قبر الشـاعر الفردوسي الشهير « الذي كان شاهداً على ما كان للأمـة الفارسية من مجد قديم ، وكذلك قدر للغزالي أن يكون عند من جاء بعده حجة الاسلام وزين الدين »[٢] .

نستنتج مما تقدم أن حياة الغزالي كما قال دي بور « منسقة الأجزاء يتصل أولها بآخرها اتصالاً جميلاً » وهي دائرة كاملة انتهت حيث بدأت، لقد ولد في طوس وعاد إليها بعد طوافه وأسفاره ليموت فيها ، وبدأ حياته العملية كمعلم ومرشد ، وأنهاها كمعلم ومرشد .

---

(١) أوردها محمد رضا في كتابه « أبو حامد الغزالي » ص ٢٥ القاهرة ١٩٢٤

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ـ تأليف دي بور ـ ترجمة عبد الهادي أبو ريدة ص ١٩٩ القاهرة ١٩٣٨

الفصل الثاني

الحياة الثقافية في عصر الغزالي

١ ـ العصر الذي عاش فيه الغزالي :

أ ـ دراسة العصر من الأهمية بمكان لأنه يبين لنا بوضوح الأصول التي كونت وجهة نظر المفكر الذي نحن بصدده . حيث إن الانسان هو ابن بيئته ، وإنه مهما حاول الابتعاد عن مجاري الحوادث في عصره لابد أن يكون لهذا العصر تأثيره الكبير في تكوين فكره ، ودرس العصر مهم لمعرفة الأصول التي كونت وجهة نظر الكاتب في الحياة . لكن الدكتور زكي مبارك يذهب إلى أن من الناس من يعيش في قومه وفي عصره بجسمه لا بروحه فلا يحس بما يحس به معاصروه . أرى أن الدكتور يعني بذلك الغزالي الذي لم يحرك ساكناً في صد الحروب الصليبية .

سنعود إلى بحث هذا الموضوع فيما بعد . ولكني الآن أود أن أقول بأن مجرد نقد الانسان لعصره دليل أكيد على أنه يعيش في عصره بجسمه وبروحه . وتأثير العصر يدخل في فكر الانسان لاشعورياً . ولقد وصل المؤرخون العصريون في أبحاثهم إلى أن لعصر الرجل تأثيراً في سيرته كائناً ما كان (١) .

---

(١) مهرجان الغزالي ١٩٦١ . مقال الدكتور مصطفى جواد ص٤٩٥ دمشق ١٩٦١

القرن الخامس للهجرة ـ حيث كان الغزالي من أعلامه ـ حافل بالتطورات الاجتماعية ، والتطورات الثقافية . والأحداث والحوادث السياسية .

لقد اصطرعت في عصر الغزالي آراء وعقائد ، ومذاهب ، ومقالات شتى ، منها ما كانت السياسة قد أشعلتها ، ومنها ما جمعت بين الأمرين السياسة والحماسة في عصره ظهر السلجوقيون الحنفيون من التركمان ، وتقوى بهم مذهب الإمام أبي حنيفة ـ علماً بأن كورة خراسان كانت من البلاد الشافعية المذهب ـ وهذا ما دفع الوزير قوام الدين نظام الملك الحسن الطوسي الشافعي إلى إنشاء المدارس النظامية نسبة إلى لقبه بين المدن الإسلامية الكبرى من المملكة السلجوقية ، وحركة نظام الملك في نصر الأشعرية الشافعية أدركت التوفيق بمساندة الخلفاء العباسيين لها أيامئذ .

مؤسس الدولة السلجوقية هو طغرل بك عام ٤٢٩ هـ ، ولقد عاصر الغزالي أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى وانقسمت العشيرة السلجوقية إلى خمسة بيوتات :

١ ـ السلاجقـــة العظمى.
٢ ـ السلاجقة الكبرى.
٣ ـ سلاجقة كرمـــان .
٤ ـ سلاجقة العراق وكردستان .
٥ ـ سلاجقة سوريـــا .

وكان ألب أرسلان واسطة عقد الدولة السلجوقية وفي عهده تأسست المدارس النظامية .

ب ـ سلطان السلاجقة اتسع حتي امتد إلى بلاد الروم في قونية وأقصر وكان طبيعياً أن تصطدم الدولة السلجوقية بالفاطميين ، ونتيجة للتنافس هذا

وجد الروم أنها فرصة سانحة لطلب المساعدة من الإفرنج وهكذا زحف الصليبيون باسم الدين، وأخذوا في الاستيلاء على بلدان المسلمين من مدن آسيا وأول إمارة أسسوها هي إمارة الرها بوادي الغرب عام ٤٩٠ هـ ١٠٩٧ م.

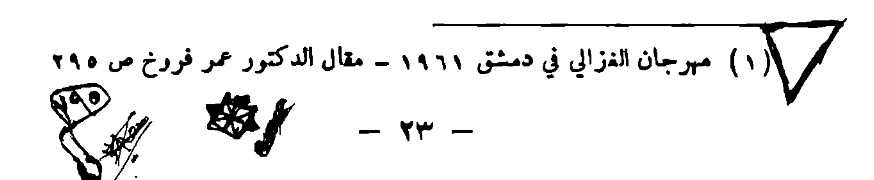
هنا يجدر بنا أن نتساءل لماذا لم ينبئنا الغزالي بشيء عن تلك الأزمة التي عاناها المسلمون حين ابتدأت الحروب الصليبية؟ فالإنسان يقضي عجباً من رجل يستعظم أن يقول مسلم:

إن الخلود في الآخرة إنما هو بالروح لا بالجسم، فيكفره ويؤلف الكتب في تفنيد رأيه، ثم يرى المسلمين كلهم مهددين بالفناء، ويرى الإسلام في نفسه معرضاً للاستئصال في بقعة واسعة كريمة من بقاع العالم الاسلامي وفي العالم كله، فلا يرفع يده بإشارة ولا يفتح فاه بكلمة، وفي تعليل ذلك يقول الدكتور عمر فروخ: وليس صعباً ويعود إلى عاملين: (١)

العامل الأول: أن الغزالي كان لايزال مريضاً، وطبيعة مرضه كانت تفقد المريض المهمة على حمل التبعة، وتخلق في المريض قلة الاهتمام بما يدور في خارج نفسه.

أما العامل الثاني فيرده الدكتور فروخ إلى موقف الصوفية عامة، حيث إن الغزالي كان قد وطد نفسه على سلوك سبيل التصوف، وحركة التصوف كانت ناشطة في أثناء الحروب الصليبية، وقد وقف جميع المتصوفة منها موقفاً هادئاً غريباً، قيل إنهم كانوا يعتقدون أن تلك الحروب كانت عقاباً للمسلمين على ما سلف لهم من الذنوب والمعاصي.

جـ - والحالة الدينية في ذلك العصر لم تكن على ما يرام إذ كانت الفتن



(١) مهرجان الغزالي في دمشق ١٩٦١ - مقال الدكتور عمر فروخ ص ٢٩٥

تشتعل باستمرار في بغداد بين الحنابلة والشيعة ، وقلما خلت منها حقبة من حقب التاريخ في ذلك العصر ، وكانت ضحاياها البشرية كثيرة والخسارة المادية كبيرة أيضاً خـــاصة في عام ٤٦٩ هـ . حيث وقعت فتنة كبرى بين الحنابلة والأشعرية .

كل هذا يدل على شدة الحالة التي كانت مستحكمة في ذلك الوقت بين المذاهب ، وهذا مما جعل كل مفكر يتعصب لمذهب معين يناصره ويشد بـــأزره .

وكان يغلب على ذلك العصر السذاجة مع شيء من المكر في الأمراء والعلماء ، أما السذاجة فيستشهد عليها زكي مبارك[1] بوصية نظام الملك الذي تركها لخلفـــه من الساسة ، « كان الامام موفق النيسابوري من جلة علمـــاء خراسان مبجلاً مهيباً وقـد نيف على الخمسين . . . لذلك وجهني أبي من بلدة طوس إلى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه لأقرأ على ذلك الأستاذ الجليل » . يستنتـج الدكتور مبارك أن العقيدة السائدة بين أهل ذلك الزمان أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبغ فيها وبلـغ الغاية وانساق إليه الجاه والنعمة والثراء . أما مكر العلماء فيوضحه الغزالي : « فاشتغلوا ـ أي الوعاظ ـ بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب »[2] . ومكر الأمراء كان ينحصر في ختل العامة وجرهم إلى الحروب باسم الدين .

د ـ ولم يكن طلب العلماء في ذلك العصر ، محبة للعلم مع أنه كان هناك

---

(١) الأخلاق عند الغزالي ـ زكي مبارك ص ٢٥

(٢) إحياء علوم الدين ـ الجزء الثالث ص ٤٠٥

حركة علمية دائبة ، بل كانوا يتخذون منه وسيلة للزلفى إلى الرؤساء ، والغزالي نفسه لم يخرج على سنة العصر من التزلف إلى الرؤساء وطلب الجاه والشهرة عندهم ، وقد شاهدنا كيف سعى إلى نظام الملك وتردد على مجالسه ، وعلم ، ورفع صوته عالياً للدفاع عن الدين ، وباعثه على ذلك ليس وجه الله تعالى « ثم لاحظت أعمالي فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الحياة وانتشار الصيت »

وكرم الرؤساء هذا لم يكن (لسواد عيون العلماء) بل لأنهم - أي الرؤساء - كانوا بحاجة إلى مؤازرة العلماء ، لأن الدين كان هو الوسيلة الوحيدة في ذلك الوقت لإقامة صرح ملك ودك آخر ، وهكذا أنشأ السلاجقة - حكام تلك الفترة - المدارس في بغداد ونيسابور ، لتعليم مبادىء أهل السنة ، لأنهم كانوا سنيين ، وكان صاحب الفضل الأكبر في ذلك هو نظام الملك ، وكان نظام الملك يحب الصوفية [1] . ومما قوى الصلة بين العلماء والحكام أيضاً بالاضافة إلى ما ذكرنا أنه قد لاح لهما في الأفق عدو واحد مشترك أقض مضجعهم ، وأقلق راحتهم ، وهددهم في دينهم ودولتهم ، هم الفلاسفة والمعتزلة ، فلا عجب إن رأينا رجال الدين والحكام يتآمرون على الفلاسفة والمعتزلة كل يشهر سلاحه في وجههم ، فالحكام شهروا السيف ، ورجال الدين طاردوهم بالقلم ، وقد نتج عن ذلك أن الشعب اتخذ من الكفر والزندقة سلاحاً يشهره في وجه من

---

(١) الأخلاق عند الغزالي - د. زكي مبارك ص ١٦

شاء من العلماء والباحثين فراجت سوق الفتنة وخشي العلماء على أنفسهم فراحوا يكتمون آراءهم في صدورهم[1] . وقد ذكر (جولد زيهر) أمثلة كثيرة ، في هذا النوع وعلق قائلاً في كتابه (التراث اليوناني) . « فإذا كان الحال على هذا النحو فمن السهل أن نفهم كيف أن الكثيرين ممن كانوا يحرصون على حسن السمعة كانوا يلبسون قناعاً على دراساتهم الفلسفية مظهرين اشتغالهم بها تحت ستار علم آخر من العلوم الحسنة السمعة وأوضح مثال لهذا هو (محمد بن علي بن الطيب) المتوفى ٤٣٦ هـ . فيذكرون أنه كان إماماً عالماً بعلم كلام الأوائل إلا أنه خشي أهل زمانه فلم يشأ الظهور صراحة ، بمظهر الفيلسوف ، فأخرج مذهبه في صورة المذاهب الكلامية التي لم تكن مع ذلك حائزة على رضى أهل السنة في عصره هي الأخرى ، ولكنها كانت على كل حال أقل خطراً من الفلسفة الصريحة لأنها على الأقل نمت على تربة إسلامية » .

والغزالي تأثر بذلك العصر . فأوجس خيفة من روحه التي كانت تسم بالكفر كل من تحدثه نفسه أن يتصل بالفلسفة والفلاسفة ، وهذا ما نلاحظه بوضوح في مؤلفاته . حيث إنه في مؤلفاته المنطقية استبدل أمثلة المناطقة بأمثلة فقهية . ويذهب « دنيا » إلى أبعد من ذلك فيقول إنه قد لاحظ أن الغزالي لم يقتصر أمره بالنسبة للمنطق على ضرب أمثلة فقهية بل ادعى أن المنطق ليس علماً فلسفياً صرفاً ، بل هو علم إسلامي أيضاً : « ولكن المنطق ليس مخصوصاً بهم — يعني الفلاسفة — وإنما الأصل الذي نسميه في فن الكلام كتاب النظر ، فغيروا عبارته تهويلاً » .

---

(١) الحقيقة في نظر الغزالي - سليمان دنيا ص ١٧

كل ذلك جاء به الغزالي مسايرة لروح العصر المتمرد الثائر : « فهو يخاطب العصر كله بدليل قوله في آخر كتابه « مقاصد الفلاسفة » : « هاكم قصتي مع رفيقي من أهل التعليم ، ولم يكن غرضي منها تقديم مذهبه . بل غرضي أسمى من ذلك وأهم » . ثم تمثل بقول العرب « إياك أعني واسمعي يا جارة » .

كانت تتمثل روح ذلك العصر بجمود وعصبية لفريق ، وجمود وعصبية على فريق ، فلاطفهم الغزالي جميعاً ، وسلك معهم شتى الحيل ليخفف من عصبيتهم ، وليتفادى شرورهم ، فهو يخترع للمنطق الاسلامي الألفاظ التي تناسبهم ، وهو يطبق المنطق على القرآن ، ويطبق القرآن على المنطق . كل ذلك مسايرة لروح العصر المتمرد الثائر . بعد كل ذلك يأتي زكي مبارك ليتهم الغزالي أنه يعيش في عصره بجسمه لا بروحه ! ؟ .

٢ – الحياة الثقافية في عصره وثقافته الشخصية :

كان العالم الاسلامي أيام الغزالي يخضع لمؤثرات ثقافية مختلفة ، فبالاضافة إلى العنصر الاسلامي الأصيل الذي يتمثل بالقرآن ، والحديث ، وآراء الصحابة ، والفقهاء ، كانت هناك تيارات ثقافية مختلفة تخلع رداءها على تفكير المسلمين ، ولعل الثقافة اليونانية من أكثر هذه التيارات أثراً ، وكان من اختلاط الثقافة اليونانية قبل الاسلام مع بقية الثقافات الأخرى . ومع اصطباغها بفكرة ما وراء الطبيعة بالأسلوب المسيحي أن ظهرت الأفلوطينية الجديدة أو كما شاع استعمالها الأفلوطينية المحدثة ، وذلك في القرن الثالث للميلاد ، وكان لها أثر كبير على الفكر الاسلامي وخاصة الصوفي منه . فلا بد إذن من كلمة قصيرة عن هذا المذهب لشدة تأثيره على المذهب « الصوفي » الذي اتبعه إمامنا فيما بعد .

ا ـ الأفلوطينية المحدثة :

ظهر هذا المذهب أول ماظهر في الاسكندرية ، وهو ينزع إلى القول: إن هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التحول ، وإنه لم يوجد لنفسه ، بل لا بد من علة سابقة لوجوده ، وإن الذي صدر عنه واحد لاتدركه العقـول ، ولاتبلغ كنه حقيقته الأذهان ، وأول شيء انبثق من الواحـد هو العقل ـ انبثقت نفس العالم ـ ومن هذه النفس الأولى ـ أي نفس العالم ـ خرجت نفس ثانية دعاها أفلوطين بالطبيعة ، ويقول أفلوطين إن انبثاق النفوس الجزئية عن نفس العالم هو كانبثاق الضوء من مركزه ، والمادة ضوء سلبي وهي مصدر التعدد وسبب الشرور لأنها عبارة عن العدم ، والعدم أشد درجات النقص والنقص هو الشر ، وغاية الحياة التحرر من ربقة المادة ، وأول خطوة لذلك التحـرر التخلص من سلطان الجسم والحواس ـ والخطوة الثـانية ـ هي الفـكر والفلسفة ، أما الخطوة الثالثة فهي أن تسمو النفس فوق التفكير إلى المعرفة ، أو العلم اللدني ، أو اللقانة الأخيرة ، هي الفناء في الله بإلهـام والذهول والغياب والوجد وذلك أوج التصوف .

وظهر الغزالي في العصر العباسي الثالث : العصر الأول كان دور العقل والتوسع ، والاستحداث والتجديد ، والعصر الثاني كان دور التطبيق ومحاولة التقريب بين الفلسفة والدين . وكان من أكبر أعلام هذا الدور الـكندي . أما العصر الثـالث عصر الغزالي ففيـه ظهرت دورة جديدة دورة الغضب للدين على الفلسفة ، وقد تأثر الغزالي فيها بنشأة صوفية روحية ، هيأت له من البيئة ، وتأتت له من الوراثة والتكوين ، فنزعت به إلى دراسة كل ماسبقه من الفلسفة وأقوال أصحابها ، ثم عادت به روحانيته الى جوهر تعـاليم

الاسلام ذاته [1] .

أما أثر الفلسفة الهندية على العالم الاسلامي فقد جاء متأخراً عن الفلسفة اليونانية في أواخر القرن الثالث للهجرة ، وكان أكثر مايبدو تأثيرها في التفكير الصوفي ، حيث تأثر المفكرون بفكرة الفناء الروحي ، ولم يقل تأثير فلسفة الفرس عن تأثير فلسفة الهنود ، وأكثر ماتظهر آثارهم في العقائد الشيعية المتطرفة في الحق الالهي للملك ، وفي حلول الله في جسد الامام .

ب ـ النزعات العلمية والفلسفية الهامة التي سادت في عصر الغزالي وموقفه إزاءها :

سادت في عصر الغزالي فرق متعددة لم تسلم من انتقاداته وردوده المفحمة ، فكان يفند أقوالها قولاً قولاً . هذه الفرق هي بالتتابع كما ذكرها في كتابه (المنقذ من الضلال) .

١ ـ علم الكلام يقول : « ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته . فصادف علماً وافياً بمقصوده « غير واف بمقصودي » إذن ماهو مقصود علم الكلام ؟ هذا مايجيبنا عنه الغزالي بنفسه إذ يقول : بأن مقصود علم الكلام هو حفظ عقائد أهل السنة على أهلها ، وذب تشويش أهل البدعة عنها ، غير أن أدلة المتكلمين بدت ضعيفة في نظره ، ووجد مجالاً للشك في الكثير من آرائهم » .. ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، وأخطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ... فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه

---

(١) أحمد فريد رفاعي في كتابه « الغزالي » ص ٣١ "قاهرة

شافياً »[1] لذلك يرى الغزالي أن أكثر خوضهم إنمـــا كان في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم : « وهذا قليل النفع في حق من لايسلم سوى الضروريات شيئاً أصيلاً » وعلم الكلام كما عرفه علي سامي النشار « هو علم الحجاج عن العقائد الإيمـانية بالأدلة العقلية »[2] والغزالي لايتردد في وصف هؤلاء المقلدين ـ أي علماء الكلام ـ الذين يسارعون إلى تكفير إخوانهم الذين يقلدون أئمة غير أئمتهم ، بأنهم بعيدون جداً عن روح الاسلام ، بل هم إلى الكفر أقرب لأنهم يعتقـــدون عصمة الإمام الذي يقلدونه ، والتقليد بحد ذاته غير وافٍ بمقصود الغزالي نفسه وهو التماس الطريق إلى العلم اليقيني .

٢ ـ محاولة هدم مذهب الفلاسفة : « ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام . . . بعلم الفلسفة » . ولقد توجه الغزالي إلى علماء الاسلام فلم يجد أحداً منهم قد صرف همته إلى ذلك . ـ أي إلى الرد على الفلاسفـة ـ وتوجه إلى المتكلمين حيث اشتغلوا بالرد على الفلاسفة ، فلم يجد في كتبهم « إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد » فشمر « عن ساعد الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعـانة بأستاذ ومعلم » . والفلاسفة في نظر الغزالي لايبرؤون من الركون إلى منهج التقليد ، ودليل ذلك ما أخذه عن فلاسفة الاسلام تقليداً عن فلاسفـة اليونان ، وما مزجوا به آراءهم من معتقدات باطلة لاتتفق وروح دينهم .

٣ ـ تصنيف الغزالي للفلاسفـــة : صنف الغزالي الفلاسفة إلى ثلاثة

---

(١) المنقذ : ص ٧

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ـ د. علي سامي النشار ص ٣ القاهرة .

أقسام هي :

١ - الدهريون : هي تلك الفئة التي جحدت الله وأنكرت وجوده زاعمة أن العالم ليس له من صانع مدبر ، قد وجد بنفسه ، وقالوا بقدم الأنواع الحيوانية ، هؤلاء هم الزنادقة ما قدروا الله حق قدره .

٢ - الطبيعيون : أكثروا البحث في عالم الطبيعة ، وفي عجائب الحيوان والنبات في تشريحها وذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، وأنكروا الآخرة والثواب والعقاب ، ولكنهم يعترفون بالله ، وهؤلاء لكثرة بحثهم في الطبيعة ، ظهر عندهم تأثير عظيم في قوى الحيوان. . . فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب وهؤلاء أيضاً زنادقة لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وآمنوا بالله تعالى وبصفاته [1] .

٣ - الإلهيون : وهم المتأخرون ، كسقراط وأرسطو ، وقد ردوا على الدهريين والطبيعيين ، وكشفوا عن أخطائهم إلا أنهم استبقوا أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفقوا للنزوع منها ، فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من متفلسفة الاسلام ، كابن سينا والفارابي وأمثالهم .

محمود قاسم يقول : بأن « الشيء الذي كان ينكره الغزالي على فلاسفة الاسلام من أمثال الفارابي وابن سينا هو مسلكهم في تقليد القدماء في المسائل الدينية اعتماداً على ما رأوه من صحة علوم هؤلاء في الحساب والهندسة

---

(١) ذكر ذلك دي‌بور في كتابه تاريخ الفلسفة في الاسلام - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة .

(٢) المنقـذ .

والفلك وغيرها من العـــلوم التي لم يتعرض لها الدين « بإثبات أو نفي » .
ويستطرد قاسم ليقول : « إن الغزالي نفسه لم يبرأ من تقليد فلاسفة الاسلام الذين وصفهم بأنهم مقلدون ولاسيا من تقليد الرئيس ابن سينا حيث إن بعض رواسب هذه المذاهب تبدو واضحة في مسألتين عالجها بصفة خاصة وهما : « مسألة النفس ، والمعرفة الاستراقية المرتبطتين بنظرية الفيض » ويورد قاسم نصوصاً وأمثلة تثبت اعتماد الغزالي على آراء ابن سينا (١) .



(١) من محاضرة محمود قاسم ، في مهرجان الغزالي - العقل والتقليد في مذهب الغزالي ، دمشق ١٩٦١

الفصل الثالث

الشك عند الغزالي

آ ـ مؤلفات الغزالي :

يعد الغزالي من أكثر كتاب العالم انتاجاً ، ولذلك وصف بأمير الكتاب ، فقال زويمر « محمد بن عبد الله أمير الأنبياء ، ومحمد بن إدريس الشافعي أمير الإيمان ، ومحمد بن محمد بن حامد الغزالي أمير الكتاب »[1] وكتبه كثيرة جداً تربو على ٤٠٠ ما بين فتوى في رسالة صغيرة وبين مؤلف مثل كتاب « إحياء علوم الدين »

لذلك سنوجز الحديث عن أهم كتبه والتي لها علاقة في بحثنا هذا ، ولكن قبل ذلك لا بد من كلمة موجزة عن منهجه في التأليف وبعض ملاحظات على كتبه.

ما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف الاعتماد على الخطابيات في إصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل يبدأ بذكر ما ورد في

---

(١) أورده عبد الكريم عثمان في كتابه « سيرة الغزالي ص ٣٥ » عن زويمر « الغواص واللآلىء » ص ١٧١

فضلها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار ، وينطلق بعد ذلك في ذكر القصص والحكايات التي تستولي على قلب القارىء .

وفي كتبه فقد اتبع نفس الخطة تقريباً ، فيشرح أولاً المذهب الذي يريد نقده ، ثم يحاول الرد عليه نقطة نقطة وبكل وضوح ؛ ومما قيل : إن الغزالي كان يدعم حجج الخصم بحجج أقوى حتى ليخيل للمرء أن الغزالي يدافع عن الفكرة التي يريد نقدها ، وهذا واضح جلي في كتابيه « مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة » لنسمعه يقول : « ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملاً مرسلاً ، من غير بحث عن الصحيح والفاسد ، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً في كتاب نود أن نسميه تهافت الفلاسفة » .

+ ميزة خطيرة أخرى تمتاز بها مؤلفات الغزالي وهي إقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة تخلب العقول وتمتع القلوب .

ه ومن المميزات التي تلفت النظر في كتبه هي تنوع الانتاج وغزارته والاحالة إلى كتبه وهذا يدلنا على شدة تعلق الغزالي بكتبه وعدم إهماله شيئاً منها ، ولذلك قال سليمان دنيا : إن ما كتبه الغزالي يعرف من كتبه أكثر مما كتب عنه ؛ ولا تلبث أن تقرأ كتاباً من كتب الغزالي حتى تعرف جملة من أسماء كتبه ، لأنه لايدع مناسبة لكتاب من كتبه تمردون أن يشير فيها إلى ذلك الكتاب ويحيل عليه [1] وهذا ما حدا بالبعض بأن يعتبر من أسباب الشك في نسبة الكتاب إليه عدم ذكره في كتبه الأخرى « هذا ما لا حظه بالاسيوس بالنسبة لكتاب « معارج القدس » ، وجعل وات

---

(١) الحقيقة في نظر الغزالي ـ سليمان دنيا ص ٩٧

يشك فيه (١) .

٦ ويغلب على أسلوب الغزالي سهولة العبارة ، والبعد عن التعقيد ، ومراعاة المرتبة العقلية لمن يخاطبهم ، « . . . أما الخواص ، فإني أعالجهم بأن أعلمهم الميزان القسط ، وكيفية الوزن به ، فيرتفع الخوف على قرب . . . والصنف الثاني : البله وهم جميع العوام ، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق وإن كانت لهم فطنة فليس لهم داعية الطلب . . . فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة ، كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة ، وادعوا أهل الشغب بالمجادلة . . .

. . . والصنف الثالث ، وهم أهل الجدل فإني أدعوهم بالتلطف إلى الحق . وأعني بالتلطف ألا أتعصب عليهم ولا أعنفهم ، ولكن أرفق وأجادل بالتي هي أحسن ، وكذلك أمر الله ورسوله (ﷺ)

ويغلب على كتب الغزالي ايضاً بالاضافة إلى ما تقدم التكرار ، فالشاهد أو المثال يحكيه في الكتب المتعددة بنصه وصياغته مما يجعل القارىء عند قراءة الكتاب الثاني مباشرة يدرك أنه للغزالي فهناك فصول تامة قد كررها في عدة كتب . ولقد أكثر الغزالي من الشواهد الدينية في كتبه ولا عجب في ذلك أليس هو « حجة الاسلام » ؟

وقد ذهب بعض الكتاب ومنهم عبد الرحمن بدوي إلى أن الغزالي قد اعتمد في تأليف كتبه على بعض المصادر اليونانية وسنورد ذلك في حينه .

وفيما يلي عرض لأهم كتب الغزالي حسب ترتيبها الزمني :

---

(١) أورده عبد الكريم عثمان في سيرة الغزالي ص ٣٦ عن كتاب «بديجيه» ص ٨٧

١ - تهافت الفلاسفة :

وقد كتبه عام ٤٨٨ هـ وهذا أشهر كتبه وأخطرها، وهو دون نزاع من أهم الكتب الفلسفية في القرون الوسطى [١]، فيه مادة غزيرة واعترافات محكمة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى لغات أجنبية متعددة يقول البارون كارادوفو ص ٥٢ : (هذا الكتاب هو رسالة فلسفية موجهة ضد مدرسة ابن سينا)

صدر الغزالي الكتاب بأربع مقدمات رد فيها على الفلاسفة ، قال في المقدمة ، « رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد من الفطنة والذكاء قد رفضوا طوائف الإسلام والعبادات ، واستحقروا شعائر الدين ووظائف الصلوات ، والتوقي عن المحظورات ، واستهانوا بتعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عن توقيفاته وقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ، ولا سند لكفرهم غير سماع الغي .

بعد ذلك ذكر المسائل التي تناقض مذهب الفلاسفة فيها وهي عشرون مسألة ، وذكر في خاتمته ما يقطع القول بكفرهم من ثلاث وجوه .

الدكتور عبد الرحمن بدوي قال : (الغزالي في هذا الكتاب - يقصد التهافت - إنما يعتمد على كتاب لفيلسوف يوناني أفلاطوني محدث هو برقلس الأفلاطوني ورد يحيي النحوي عليه » [٢] والكتاب اسمه - كما يقول البدوي - حجج برقلس في قدم العالم ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية بواسطة إسحاق

---

(١) ابراهيم مدكور في محاضرته « الغزالي الفيلسوف » التي ألقاها في مهرجان الغزالي دمشق ١٩٦١ ص ٢١٥

(٢) دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي - الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٥٢ وما يليها .

ابن حنين ، ويتابع الدكتور بدوي في كتابه مبيناً تأثر الغزالي الكبير بالكتاب السالف الذكر حتى يصل إلى نتيجة : (الغزالي في التهافت إنما رد على آراء بعض الفلاسفة بآراء البعض الآخر ، وبعبارة أدق نراه رد على المشائين ومن شايعهم مثل برقلس بكلام استعاره من فيلسوف تأثر بأفلاطون أكثر مما تأثر أرسطو في الالهيات فضلاً عن أنه فيلسوف ذو دين ـ ونعني به ـ يحي النحوي الذي كتب رده هذا سنة ٥٢٤ م .

ما أورده الدكتور بدوي لا يمنع من أن يكون التهافت أو الكتب الفلسفية في القرون الوسطى خاصة قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة المسلمين ، فقام ابن رشد بعد ١٠٠ عام وألف كتاباً في نقده دفاعاً عن الفلسفة : (لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ولولا ضرورة طلب الحق ما تكلمت في ذلك)[1]، ولا شك أن الغزالي في تهافته (أكثر أصالة ، وأوضح شخصية ، وأعظم تحرراً)[2]

٢ ـ مقاصد الفلاسفة :

ألفه عام ٤٨٧ هـ ، وهو تلخيص شامل واضح للنظريات الفلسفية ، على نحو ما صورها الفارابي وابن سينا ، قال في المقدمة : (فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الاحاطة بمداركها محال ، بل هو رمي في الغواية والضلال ، فرأيت أن أقدم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزاً مشتملاً على حكاية مقاصدهم من علومهم المنطقية الطبيعية والالهية من غير التمييز بين الحق والباطل ... وأعرفك أن علومهم أربعة أقسام : الرياضيات ، والمنطقيات ، والطبيعيات ،

---

(١) تهافت التهافت ـ ابن رشد .

(٢) مهرجان الغزالي ـ محاضرة الدكتور مذكور .

والالهيات . . . . وسيذكر في كتاب التهافت بطلان ما ينبغي بطلانه .

٣ ـ معيار العلم في فن المنطق :

كتبه بعد التهافت وقبل سفره إلى دمشق ، والباعث على تحرير هـــذا الكتاب كما يقول الغزالي غرضان مهان : « أحدهما تفهيم طرق الفكر والنظر وتنوير مسالك الأقيسة والعبر .... والباعث الثاني الاطلاع على ما أودعنـا في كتاب تهافت الفلاسفة فإنا ناظرناهم بلغتهم ، وخاطبناهم على حكم اصطلاحهم وفي هذا الكتاب تتكشف معاني تلك الاصطلاحات » . (١)

يتكلم الغزالي في هذا الكتاب عن مدارك العلوم والقياس وأنواعـه نكتفي بهذا القدر عن هذا الكتاب ، لأننا سنعود إليه فيما بعد .

٤ ـ إحياء علوم الدين :

حرره ما بين ٤٨٩ هـ ٤٩٥ هـ هذا الكتاب هو أبعد كتبه أثراً وأسيرها ذكراً ، وأبقاها على وجه الدهر بلا جدال ، كتب في الفلسفة ، ولكنه لم يزد على أن تغنى بليل معاصريه (٢).

وهذا الكتاب مؤلف من أربع مجلدات تتناول أربع مواضيع هي : العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات ، ويقسم كل من هذه الأرباع إلى عشرة كتب ولكل كتاب أهمية خاصة . ووضع الغزالي لهذا الكتاب مختصرات عديدة منها « الوجيز » ومنها « المبسوط » .

ويمتاز هذا الكتاب بأمور خمسة يوردها الغزالي :

---

(١) معيار العلم ـ تخفيف في الدين صيدي الكردي ص ٢١ ـ ٢٢

(٢) الأخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك ص ٣٥٠

١ - حل ماعقدوه، وكشف ما أجملوه ٢ - ترتيب مابددوه، ونظم مافرقوه ٣ - إيجاز ماطولوه، وضبط ماقرروه ٤ - حذف ما كرروه، وإثبات ماحرروه ٥ - تحقيق أمور غامضة صعبت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا .

وقد كان للإحياء تأثير كبير عند مفكري الاسلام حتى قال عنه السبكي : «لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الإحياء لكفى»[١] . وقال عنه النوري : «كاد الإحياء أن يكون قرآناً»[٢] .

وهذا الكتاب قد شرحه، واختصره كثير من العلماء ومن أهم الشروح، كما يقول عبد الكريم العثمان : «إتحاف السادة المتقين» لمحمد الحسيني الزبيدي (الشهير بالمرتضى) .

ولم يسلم كتاب الإحياء من نقدات الدكتور بدوي حيث رد بعض فصوله ومنها باب (توبيخ النفس ومعاتبتها) إلى كتاب «معاذلة النفس» ويورد الدكتور بدوي مقتطفات تثبت تأثر الغزالي الشديد ليس في الفصول فقط بل وفي العناوين - فالغزالي يقول (في توبيخ النفس ومعاتبتها) وعنوان كتاب هرمس معاذلة النفس .

٥ - مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار :

هذا الكتاب يعبر عن المرحلة العليا في تصرف الغزالي إنه في ظاهره تفسير للآية الكريمة : ﴿الله نور السموات والأرض مثَل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرةٍ مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية، يكاد زيتها يُضيء ولو لم تمسسه

(١) سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه - عبد الكريم عثمان ص ١٠٣

(٢) أورده محمد رضا في كتابه «أبو حامد الغزالي» ص ٢٩

نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ [النور : ٣٥] .» ولكنه في حقيقته عرض لمذهب في النور الالهي » بدوي ص ٢١٥ . قال الغزالي في أول الكتاب : «انكشف لأرباب القلوب أن لاوصول للسعادة للانسان إلا بإخلاص العلم والعمل للرحمن ، فسنح في خاطري أن أجمع كتاباً جامعاً لآي القرآن العظيم ، وسنن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكلمات الأولياء ونكت المشايخ رحمهم الله تعالى ، وحكم أهل العرفان ، وأخذت من كل مايشوق القلب إلى الله سبحانه وتعالى ، ويقطـــع لذة النفس وشهواتها ، ويرغبها في الآخرة ودرجاتها ، وحصرت مقصوده في ثمانية وأربعين باباً .

ويتابع الغزالي حديثه في الكتاب عن مراتب الأرواح البشرية النورانية فيرى أن هذه المراتب هي خمس :

ا ـ الروح الحساس وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس .

ب ـ الروح الخيالي وهو الذى يكتب ماتورده الحواس ، ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلي فوقه عند الحاجة إليه .

ج ـ الروح العقلي الذي يدرك المعاني الخارجية عن الحس والخيال .

د ـ الروح الفكري وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيؤلف بينها ويستنتج منها المعارف النفسية .

هـ ـ الروح القدس النبوي الذي به يختص الأنبياء ، وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب ، وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السماوات .

الغزالي يقول : إن الأمثلة التي ضربها الله تعالى في آية النور تناظر هذه الأرواح الخمسة .

يقول الدكتور بدوي في (مشكاة الأنوار) : « إنه يعدها أعظم كتبه من الناحية الفلسفية »[1] .

ولكن الموضوعية تفرض عليه أن يقول : « والغزالي في هذا الكتاب « مشكاة الأنوار » شديد التأثر بالأفلاطونية المحدثة تأثر في « أفلوطين » وطبعاً لايرمي الدكتور بدوي قوله جزافاً ، بل يدعمه بالحجج المنطقية المقنعة .

٦ – المنقذ من الضلال والمفصح عن الاحوال (٥٠١-٥٠٢) :

هو قصة حياة فكرية ، وصورة نفس في نزاع مستمر ، وبحث دائب في الحقيقة ، والتماس مستطيل للمعرفة ، بل هو قصة الشكوك والهواجس النفسية المضطرمة المتدافعة ، ونفحات الايمان واليقين الخاطرة المنعشة المشجعة قصة الضياء كيف انطفأ ثم عادت أشعته خاطفة لامعة ، وصورة النفس العائدة إلى الايمان الراجعة بعد درجات متلاحقة منوعة بين شك ويقين ، ويقين وشك إلى أن استقرت النفس منها أخيراً عند إيمان ثابت مكين[2] .

هذا الكتاب هو من أوائل الكتب التي يتحدث فيها المؤلف عن حياته الفكرية ، وهو آخر ما كتب من كتب فلسفية ، وفيه نظرية غزالية مكتملة – كما يقول الدكتور إبراهيم مدكور .

كتب الغزالي في المنقذ سيرته الفلسفيـــة وكيف تقلب في المذاهب الفلسفية المختلفة حتى انتهى به الأمر إلى اصطناع طريق الصوفية ، ويعتبر المنقذ بأنه وثيقة نفيسة ذات قيمة في ذلك العصر حيث إنه « تكلم فيهـا

(١) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي – عبد الرحمن بدوي ص ١٧٢

(٢) الدكتور أحمد فريد رفاعي في كتابه « الغزالي » ص ١٧٢ – القاهرة .

عن تجربته الروحية بين مختلف المذاهب والآراء »[1].

كتب الغزالي سجل اعترافاته ، وقصة حياته الفكرية والروحية ، وقد أربت سنه على الخمسين كتبه بناء على أسئلة صديق له : « أما بعد فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق - مع تباين المسالك والطرق - وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته أخيراً من طرق التصوف ... »[2].

هذه لمحة خاطفة عن أهم ما كتب الغزالي ، وقد راعيت أن أقدم فكرة واضحة وموجزة عن كل كتاب ، وعما قيل فيه ، آملاً أن أكون قد جاورت الحقيقة في عرض كل كتاب . وقد اخترت هذه الكتب السابقة الذكر ، لأنها أقرب ماتكون علاقة بالموضوع الذي نحن بصدده .

ب - الشك عند الغزالي - (خصائصه ومراحله) :

تعود نظرية الشك عند اليونان إلى أن العقل الإنساني لا يمكن أن ينفذ إلى طبائع الأشياء ولا إلى حقائق الأمور . نحن نعرف الأشياء كما تبدو

---

(١) (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) للدكتور علي سامي النشار ص ٢١٣ القاهرة .

(٢) المنقذ .

لنا ، لا كما هي حقيقة ، والشك لا يقتصر على طبائع الأشياء المادية والماورائية بل يتناول السلوك الإنساني أيضاً . إن الناس كلهم محتاجون إلى خوض الحياة الاجتماعية ، لكنهم عاجزون عن أن يميزوا العقل الحسن في نفسه من العقل القبيح في نفسه »[1] هذا هو الشك بصورة عامة ولكن على ماذا يقوم الشك في الفلسفة ؟ الشك الذي سعى إليه إمامنا ؟ ـ الشك في الفلسفة يقوم على محو الحقائق المتعارفة ، وتدارسها على ضوء مبدأ مطلق ثابت يعتبر مقياساً نهائياً . « والغزالي أول الساعين في الفلسفة العربية على هذا الشك المنهجي لبلوغ اليقين »[2]

ولكن في أي فترة خالط الشك نفس الغزالي ؟ هل نستطيع تحديد فترة معينة بالذات كبدء للشك عند الغزالي ؟

الحقيقة أنه قد جرت محاولات عديدة لتحديد الفترة الزمنية التي بدأ الشك فيها يتطرق إلى ذهن حجة الإسلام .

جميل صليبا وكامل عياد يقولان : إن الشك قد خالط نفس الغزالي قبل مغادرته نيسابور . أما زويمر فإنه يحدد تاريخ نهاية الأزمة ونحن نعلم أن تاريخ اهتدائه بعد شكوكه هو عام ٤٨٨ هـ ، وأنه في هذا العام بدأ بكتابة « تهافت الفلاسفة » وبعدها تلاحقت كتبه الفلسفية العديدة . أما دي بور في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) فيقول : « ثم درس علم الكلام في نيسابور من إمام الحرمين (المتوفى ٤٧٨ هـ) ولعل الغزالي كان قد بدأ يصنف ويدرس ، ولعل الشكوك أيضاً كانت قد بدأت تتطرق إلى علمه أثناء هذه المدة »

---

(١) محاضرة الدكتور عمر فروخ ـ مهرجان الغزالي ١٩٦١ ص ٢٩٥

(٢) أعلام الفلسفة العربية ـ د. كمال اليازجي ـ د. انطوان غطاس كرم ـ بيروت ١٩٦٤

أما ماكدونالد فإنه يتردد في تحديد بدء هذه الأزمة النفسية إذ يقول : « لست على يقين فيما إذا كان الغزالي قد انقاد وهـــو في نيسابور إلى شكوكه التي تكلم عنها في المنقذ أم لا ؟ ولا بد أن تكون قد تملكت منه قبل عام ٤٨٤ هـ » وهذا العام يوافق توليه منصب التدريس بمدرسة بغداد .

جميع من ذكرناهم حاولوا تحديد فترة زمنية معينة فيها يبدأ الشك عند الغزالي ، ولكن سليمان دنيا يحـاول إعطاءنا تفسيراً منطقياً مـــلائماً إذ يقول: « الشك ككل الأمور النفسية البحتة، لا يظهر فجأة، وإنما يدب إلى النفس دبيباً خفيفاً ـ حتى ربما لا تشعر به نفس صاحبه ، ثم لايزال يقوى على مر الأيام حتى يضايق النفس ويخنقها »[1].

شك الغزالي على نحو ديكارت ليصل إلى اليقين ، لكن هناك نقطـة هامة يجب ملاحظتها ، هي التي تظهر لنا بوضوح موقف الغزالي من الدين : شك الغزالي لم يمتد إلى الحقائق جميعها فهناك ثلاثة حقائق لم يتزعزع إيمانـه بها قط : ـ

١ ـ وجود الله

٢ ـ نبوة محمد

٣ ـ اليوم الآخر

كان دأب الغزالي وديدنه طلب العلم لحقائق الأمور وكان يؤمن بعلم يقيني مصدره الله تعالى ، ونحن واجدون هذا الايمان عنده في كل كتاب من كتبه .

---

(١) الكتاب المار ذكره .

سار الشك عند الغزالي ـ الذي هو الابتداء في تفكيره ـ على المراحل الآتية :

١ ـ **المرحلة الاولى** الشك في العلم الموروث ، وقد كان هذا الشك سمحاً خفيفاً فأخذ الغزالي يبحث عن الحق بين اضطراب هذه الفرق ، ومن أهم ميزات نفسية الغزالي ومن أقوى عناصرها نزوع شديد إلى الكشف عن أسرار الكائنات ، ورغبة متوقدة في هتك الستار عن خفايا الوجود . قد دفعه : « التعطش إلى درك حقائق الأمور » ، إلى النظر في كل فكرة يقع عليها يحللها وينقدها ليميز الغث من السمين ، ويفصل الحق عن الباطل (المنقذ) وكان لامام الحرمين الأثر الكبير على الغزالي ففي حياته ـ إمام الحرمين ـ كانت رغبة الغزالي مجردة في المعرفة ، لكن بعد وفاته وبعد تأثيره الكامل به انطلق الغزالي راغباً في تكوين رأي شخصي له في المتقدات والمذاهب التي كانت سائرة في أيامه[1]

نظر حوله فهاله ما رأى ، رأى الناس مختلفين أدياناً ومللاً ، فالطريق متباينة ، والبحر عميق غرق فيه الكثيرون ، وما نجا منه إلا قليلون ، وقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ « ستفترق أمتي إلى فرق الناجية منها واحدة » حاجته العنيفة لكل علم المتشحة بفضول عقلي غريب ، دفعته إلى التهجم على كل مشكلة ، فاضطربت نفسه ، وقلق فكره للاختلاف القائم بين تلك المذاهب ، والتناقض المستحكم فيها . وسبب ذلك قد وجده الغزالي جلياً في الطريق المتبعة لتكون العقيدة واعتناقها . فصبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصر ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الاسلام . (ولست أقول هـــذا طبع العوام ، بل طبع أكثر من رأيته من المتسمين باسم العلم . . . فهم في نظره لا يطلبون العلم بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة

ما اعتقدوه حقاً بالسماع والتقليد) . وبرأيه : الخاصة أكثر تقليداً من العامة لأن الخاصة أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل »[1] .

إذن مما تقدم : نستطيع أن نلاحظ بوضوح كيف أن التقليد هو الطريق المتبعة لتكوين العقيدة واعتناقها ، ولكن التقليد شر في نظر الغزالي من ثلاثة وجوه : . –

١ ـ الدعوة إلى التقليد نوع من الكفر .

٢ ـ التنافس ملازم للناظر المقلد ، والداعي إلى التقليد

٣ ـ محتم على المقلد المكوث في الضلال إن كان فيه ولا سبيل له إلى التخلص منه ، والعثور على الحقيقة ، ولكن الغزالي يستدرك ليقول : إنه من واجب عامة المسلمين تقليد مذاهب السلف وتقديس الله سبحانه ، وتنزيهه عن الجسمية وتوابعها ، ذلك أنه من ينسب الجسمية إليه تعالى لن يكون إلا عابد صنم ، وليس للجمهور أن يسأل لأنه يتعرض لما لا يطيقه ، ويخوض فيما ليس هو أهلاً له ، لأنه إما أن يسأل شخصاً جاهلاً ، وإما عارفاً به .

فإذا سأل جاهلاً مثله ، زاده جهلاً ، وربما ورطه في الكفر من حيث لايشعر ، أما إذا سأل عارفاً فإن هذا العارف يعجز عن تفهيمه .

ويحظر الغزالي على العامي أو من هو في حكمه كل تصرف في الألفاظ ، إما بالترجمة وإما بالجمع والتفريق ؟ ويزيد الغزالي فيقول : إنه أجدر بالعامي أن يكف عن التفكير فيما لايستطيع فهمه ، وعليه أن يشغل نفسه بالصلاة والذكر ، فإن لم يقدر فبعلم آخر من لغة ونحو ، فإن لم يستطع فبحرفة وإلا

---

(١) العقل في الاسلام — كريم عزقول .

فيلعب . وإذا سألنا الغزالي لماذا تريد من العامي أن يشغل نفسه ، أجابنا على الفور ، لكي تصرفه الأعمال عن مخاطر الشرك .

هكذا وجد الغزالي التقليد هو الطريقة المتبعة لتكوين العقيدة عند سائر الناس الخاصة والعامة ، ولكن هل استثنى نفسه من هذا التقليد بالطبع لا ، لأنه من يبحث عن الحقيقة يجب أن يكون موضوعياً في تقصياته للأمور ، والغزالي كذلك إذ وجد نفسه حسب تعبيره « أعمى من العميان » .

ومن هو المقلد ؟ بمعنى آخر ماهو شرط المقلد ؟

بنظر الغزالي المقلد لا يعلم أنه مقلد ، فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده التي لايجبر شعبها ما لم تذبها النار وتصنع من جديد .

وكان شعار الغزالي « أتفحص عن عقدة كل فرقة ، وأكتشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محقق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع » وهؤلاء الذين يتسارعون إلى تكفير من لايرى رأيهم ، ولا يعتقد معتقدهم أولى بأن يوصف الواحد منهم بأنه « غر بليد قد قيده التقليد » .

وهكذا لم يعد الغزالي مؤمناً بكل معنى الكلمة ، فإن كل ما كان يسلم به حتى الآن غدا لديه عالقاً في الهواء لا أساس له .

المرحلة الثانية : الشك في الحسيات :

في هذه المرحلة كان الشك عنيفاً هداماً من الصنف الذي يعتري كبار الفلاسفة والمفكرين . فطرح الغزالي للنظرة الأولى سائر الموازين . شك في قيمة معارف علماء عصره ، ثم شك في قيمة معارفه هو لأنها حصلت له ولهم عن طريق التقليد . وكانت نفس الغزالي لاتطيق المكوث في حالة العري ، ولا عقله الصبر على حيرة الشك ، ولذا فقد عزم حالاً على النظر

بنور العقل في تلك المعارف لتمحيصها ، وتمييز صحيحها عن باطلها ، كان مطلوب الغزالي العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ماهي : « فظهر له أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » . أخذ يفتش عن اليقين في حقول المعرفة فطرح سائر الموازين ، ولم يستقبل سوى العقل والحواس ، فإنهما من القوة والوثاقة بحيث يظهر للانسان لأول وهلة أنها يوصلان إلى هذا النوع من العلم الذي ينشده الغزالي . لكنه لم يقبل ميزاني العقل والحس على علاتهما ، بل أخذ يشك بنفسه فيهما .

وهنا يقبل على المحسوسات والضروريات يتأمل فيها « فانتهى بي طول التشكك إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ؟ وأقوى من الحواس حاسة البصر ، فهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك . . . وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار ، وهكذا يجب رفض المحسوسات »

المرحلة الثالثة : الشك في العقليات :

وتطلب الغزالي مقياساً جديداً يقوم مقام الحس فوجده في العقل : « قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعله لاثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من ثلاثة ، والنفي والاثبات لايجتمعان في الشيء الواحد لايكون حادثاً قديماً موجوداً ومعدوماً ، واجباً وحالاً ، فقالت لي المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات ، كثقتك بالمحسوسات ؟ وقد كنتَ واثقاً بي ـ فجاء حاكم العقل ، فكذبني ، ولولا

حاكم العقل ، لكنت تستمر على تصديقي . فلعل وراء إدراكه حاكماً آخر إذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس عن جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة منها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك أصل وطائل ، فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة الى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة إليها فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ... ولعل تلك الحالة هي الموت إذ قال محمـد ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . فلعل الحياة موت بالاضافة لى الآخرة » [1] .

إلى هنا كان الغزالي فيلسوفاً لا فقيهاً ، وكان شكه الذي اقتصه شكاً منهجياً غايته أن يتبع طريقاً يرسم المنطق ليصل بصاحبه إلى نتيجة ما .

أمام هذه الأفكار تزعزعت ثقـة الغزالي في المعقولات فاضطر إلى رفضها وفصلها عن نفسه . ما كاد الغزالي يقطع هذه المرحلة الأخيرة من شكه ، ويقفز في هاوية الشك المطلق التي لا قعر لها حتى ضاقت نفسه ، وضرب الشك حواليه نطاقه ، وأحاط به سرادقه لا يجد منه منفذاً . لقد أحكم حواليه وبات من شكه في ظلام . « فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس ... حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ... فأعضل الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيها بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال »[2]

---

(١) المنقذ ص ٧١

(٢) المصدر أعلاه ص ٧٣

خروج الغزالي من الشك إلى اليقين :

وجد الله عبده الغزالي ضالاً فهداه ، والله يهدي من يشاء ، ولا يتخلى عن عبد من عباده المخلصين ، وهكذا أتاه اليقين أخيراً بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، (ومن لَم يَجعَل اللهُ له نوراً فمالَهُ من نور) [النور : ٤٠] وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

وهنا يأخذ الغزالي في الاستدلال على كنه ذلك النور من آيات الله حيناً ، ومن أحاديث رسوله حيناً آخر . وقال تعالى : (فمَن يُرد الله أن يَهْديَه يشرح صَدْرَه للإسلام) [الأنعام : ١٢٥] قيل : إن لما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح هنا ، في هذه الآية قال : « نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر » فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » ويورد الغزالي حديثاً لرسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قد خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره » فمن ذلك النـــور ينبغي أن يطلب الكشف وذلك النور ينبجس من الوجود الالهي في بعض الأحايين ويجب الترصد له .

ج ـ التصوف عند الغزالي

قبل البدء في الكلام عن تصوف الغزالي لا بد من كلمة ولو موجزة عن التصوف عامة وأصل كلمة « صوفية » ومصدر اشتقاقها .

ما هو التصوف ؟ متى ابتدأ ؟ وما موقف الاسلام منه ؟ وما رأي الغزالي به ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنجيب عليها فيما يلي :

معظم المفاهيم وإن لم يكن جميعها ، تتطور مع تطور المدنية وتقدمها وتتغير أيضاً فإما أن يساء استعمالها ، وإما أن تزدهر وتتبلور .

لقد أشكل على البعض في هذا العصر مفهوم الصوفية العميق . حتى إنهم ظنوا التصوف أنه البدع المنتشرة ، والتي يبرأ منها الدين ، وظنوا المتصوفة أنهم أولئك الذين يظهرون في الموالد بعمائمهم الضخمة ، والمسابح التي تكاد تصل إلى الأرض طولاً . فالصوفية أسمى من ذلك وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة أولها ، وهي أول شرائطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى[1] ويتابع الغزالي قائلاً : الصوفية هم السالكون لطريقة الله تعالى خاصة ، وإن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ... فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

من المقتبسات المتقدمة الذكر ومن أقوال الغزالي الكثيرة عن التصوف نستطيع أن نخرج بتعريف شبه واف للتصوف ، فهو يلتمس الحق عن طريق تطهير النفس وإعدادها لقبوله بالإلهام الالهي : فأربابه يعتقدون أن النفس من أصل طاهر شريف ، تلوثت بأدران المادة إذ دخلت في الجسد وخضعت له فاستغلها في أغراضه الحيوانية ، واستعانها على تحقيق مشتهياته الدنيوية[2] .

---

(١) المنقذ للغزالي .

(٢) أعلام الفلسفة العربية ـ يازجي ـ كرم ص ٢٦٧

الأبحاث في المغيبات ـ كالتصوف وما شابهه ، لانستطيع أن نحدد بالضبط تاريخ نشأتها ، لكننا لانذهب بعيداً إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة الإنسان على هذه البسيطة [1] .

في أصل كلمة « صوفية » ذهب رجال الفكر مذاهب شتى .

قال البيروني : إن لفظة التصوف إنما هو تحريف للكلمة « سوف » اليونانية التي تعني الحكمة وبها سمي الفيلسوف بيلاسوف أي محب الحكمة ، لكن الدكتور عبد الحليم محمود يذكر أن التسمية بالصوفية كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية . ويقول الدكتور مبارك : إن كلمة الصوفية جاءت من كلمة صوف وهي قديمة في العربية .

وتأييداً لما أورده محمود ومبارك فالكلمة « صوفية » عرفت في العصر الجاهلي ـ أما الحكمة اليونانية فمن المعلوم أنها ترجمت للعربية في منتصف القرن الثالث للهجرة .

رأي آخر يقول : إنها جاءت من الصوف ، فيقال : تصوف : لبس صوفاً ، وتقمص : لبس قميصاً ، ويعتمدون بذلك على أن الصوف ـ وهو لباس النساك ـ اتخذوه قهراً للنفس ، وإيذاء للجسد فقد كان لبسه شعاراً لهم .

إلا أن هناك من يقول : إن الصوفية لم يختصوا بلبس الصوف .

رأي ثالث قال : إنهم (أي أهل التصوف) منتسبون إلى « الصفة » بمسجد رسول الله ، والصفة هي السقيفة التي كان الفقراء المتعبدون يجتمعون تحتها .

---

(١) المنقذ من الضلال ـ عبد الحليم محمود ص ٨

لكن هل النسبة إلى « صفة » تجيء صوفي ؟

وهناك رأي رابع يقول : إن الكلمة مشتقة من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة والمفاجأة من الله تعالى .

المعنى صحيح ، لكن نعود إلى سؤالنا السابق هل النسبة إلى صف تجيء صوفي ؟

ورأي خامس يقول : إنها جاءت من الصفاء لأن أرباب التصوف عرفوا بصفاء القلب وسلامة الطوية ، والتخلي عن شؤون الدنيا .

أما صاحب الرسالة القشيرية التي أورد معظم الآراء المار ذكرها فيقول: الأظهر فيه أنه لقب وليس اشتقاقاً .

ما رأي الباحثين المحدثين ؟ لقد انقسموا قسمين :

١ ـ قسم قال : إنها مأخوذة من سوفيا

٢ ـ والقسم الثاني : يرجح أنها جاءت من الصوف وعلى رأسهم البارون كارادوفو الذي يقول : إن الكلمة نصرانية بهذا المعنى ـ أي من الصوف ويتابع : « إن أول رجل لقب بالصوفي في الاسلام حوالي منتصف القرن الثاني من الهجرة وكان هذا الرجل عابداً يكنى بأبي هاشم »[١]

لكن الذين حاولوا الرد على من يقول : إن الصوف أصل التصوف قالوا : إن ذلك يبعد الصوفية عن الحكمة الالهية ، وينسبها إلى الظاهر .

ولكن هل ردهم في محله ؟ يجيب الدكتور عبد الحليم محمود : إن المعنى الأصلي قد يتطور ويتغير ويختلف وقد يقصد عكسه « والعقيدة الإسلامية هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين كاملين هما : « الظاهر » و « الباطن » أعني الشريعة وهي الباب الذي يدخل منه الجميع ، والحقيقة:

---

(١) الغزالي ـ البارون كارادوفو ص ١٦٠

ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار ، والباطن يعني السبل الموصلة إلى الحقيقة أي الطرق التي تقود الانسان من الشريعة إلى الحقيقة « والطريقة والحقيقة مجتمعتين يطلق عليهما التصوف . إذا رجعنا إلى الصورة الرمزية ، للدائرة ومركزها قلنا : إن الطريقـة هي الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على الدائرة هي مبدأ الخط ، وهذه الخطوط التي لا تحصى تنتهي كلها إلى المركز [1]

مر التصوف بأدوار ذكرها يازجي وكرم في كتابهما أعلام الفلسفة العربية وهي :

١ ـ دور الزهد العملي : وهو دور نشأة التصوف وكان مصدر هذه النزعـــة :

أ ـ ناحية إيجابية : تشدد التعليم الاسلامي على الاعتبارات الروحية ، والقيم الانسانية .

ب ـ ناحية سلبية : وهي الردة العنيفة التي حدثت في وجه التوسع الاجتماعي في خلافة عثمان وإبان الحكم الأموي ، أخذت على عثمان رفاهيته وبذخه ، وهذه الردة قويت في عهد ولاية معاوية الذي نقل سمة الخلافـة إلى ملك ، وكانت حجته في ذلك أن هذه المظاهر لابد منها في صيانـة هيبة الخلافة تجاه الممالك الأعجمية . والردة الثالثة كانت على يد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز الزاهد ، لكن عهده في الخلافة لم يطل .

٢ ـ دور الفلسفة الصوفية : بدأ التأثير الخارجي يتجلى أول الأمر في النزعة الزهدية التي نمت وترعرعت في خراسان بتأثير التعاليم الهندية البوذية واتجه التصوف في مجريين :

---

(١) مقال لعبد الواحد يحيى أورده عبد الحليم محمود في كتابه عن « المنقذمن الضلال »

أ ـ حمل الأول التأثير اليوناني .

ب ـ وانطبع الثاني بالطابع الهندي .

٣ ـ دور المبادىء المتطرفة : في هذه المرحلة برز الحلاج وهو علم من أعلام التصوف طغى على منهجه الزهدي التأثير الهندي . على أنه غالى في فكرة الفناء ، ويقال عنه : إنه كان يقول : « سبحاني ما أعظم شأني » ، وهذا الحلاج قتل مصلوباً .

الغزالي من بعد الحلاج حاول أن يحرر التصوف من مثل هذا الغلو ويؤيد أصله بالتورع ، ويحببه إلى قلوب الناس .

بعد ذلك أخذ التصوف في الانحدار والانحطاط ذلك لأن أربابه في هذا الدور أعوزهم النشاط الروحي ، فعمدوا إلى كسب المنزلة الروحية بين الناس عن طريق الادعاء والشعوذة ، والتصوف هو ـ كما ذكرنا ـ طريق العبد إلى ربه ، وأن حياته بمثابة سفر إليه تعالى بأمل أن ينتهي به إلى مشاهدة الحق .

وفي الكتاب (أعلام الفلسفة العربية) يبين يازجي وكرم شروط القبول في التصرف ، ودرجاته ، ومرتبته ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

ومن كلام يازجي وكرم نستشف أن التصوف نما من أصول إسلامية فهل يوافقهم على ذلك باقي الكتاب والمفكرين ؟

الدكتور نشار يقول : « إن الاسلام كان عدوا ممتازاً للفلسفة إذا ما اعتبرنا الفلسفة بحثاً ميتافيزيقياً أو وجودياً . . . والتصوف أيضاً بحث ميتا فيزيقي من ناحية أخرى على فكرة الزهد ، أي على فكرة عملية تخالف إلى حد كبير فكرة الاسلام في الجهاد » ويتابع النشار قائلاً : « وكلمة زهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد بعيد عن المعنى الصوفي للكلمة

﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ ولا يتخلص الاسلام من الجسد إطلاقاً بل نزلت أحكامه للتوفيق بين مطالب النفس. ولا يشبه الاسلام المسيحية ، التي نشأ التصوف الاسلامي إلى حد كبير تحت تأثيرها ، في محاولة الوصول إلى عالم الملكوت متخلصة من الناسوت »(1)

إذا لم يكن التصوف إسلامياً ولم يتأثر به ، فبم تأثر إذن ؟

يجيبنا على ذلك الدكتور النشار نفسه فيقول : تأثر التصوف بكل ماحوله من فلسفات أخذ من الفيدا الهندي ، وأخذ من الإشراقية الفارسية ، واستمد من الفيض الأفلوطيني ، كما تأثر بأفلاطون وأرسطو ثم وجد مصدراً هاماً في المجموعات الهرميسية ، وانتهى إلى عقائد مختلفة أهمها عقيدة الاتحاد ، وعقيدة الوحدة الوجودية.

ويصل النشار أخيراً إلى النتيجة الآتية « في إيجاز لاتمثل الدراسات الصوفيه برغم ما فيها من أصالة الفلسفة الاسلامية في شيء » ص ٨

ويقول الدكتور مدكور : « لم يكن الاسلام فسيح الصدر للرهبنة المسيحية ، والتقشف الهندي ، وكثيراً ما دعا إلى العمل للدنيا ، والتمتع المباح بلذائذ الحياة ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ [الأعراف ٣٢] ومصطلحات الصوفية ، فضلاً عن نظرياتهم ترجع إلى أصل في كتاب الله. وغني عن البيان أن حديث المعراج وقصة يوسف كانا أساساً لنظريتين هامتين في النظريات الصوفية ، وهما الجذب والحب »(2).

ويستطرد الدكتور مدكور قائلاً : إنه يجب أن يبحث عن أصول

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام - الدكتور علي سامي النشار ص ٧

(٢) في الفلسفة الاسلامية للدكتور إبراهيم مدكور ص ٦٩

التصوف الاسلامي في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، كما يبحث عنها في الصوامع الهندية والبيع اليهودية ، والكنائس المسيحية .

أما في كتاب عبد الحليم محمود ، فنلاحظ شدة تحمس الكاتب للفكرة القائلة : إن التصوف عربي إسلامي فيقول : إن الصوفية ليس شيئاً أضيف إلى الدين الاسلامي ، بل بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين والحق أن التصوف عربي إسلامي ، كما أن القرآن الذي يستمد التصوف منه أصوله مباشرة عربي إسلامي ، ولو سألنا ما هو أساس التصوف وكيف يتعلم لأجابنا الدكتور محمود على الفور بأن أساس التصوف في الأغلب الأعم هو الشك على الإطلاق . . . وأنه لايتعلم بواسطة الكتب على الطريقه المدرسية ، ولكن يحتاج الى استعداد فطري خاص ، وينتسب إلى سلسلة صحيحة . . .

ويفند الدكتور محمود مزاعم الذين يحاولون أن يبعدوا التصوف عن الاسلام مستشهدين بآيات الله البينات . صحيح أن القرآن يقول : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص ٧٧] والتصوف توكل وزهد ، وهذا لايؤيد التصوف ، لكن في نظر القرآن الحياة الآخرة خير وأبقى و ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ﴾ [الحديد : ٢٠] و ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣] . وما في القرآن من دعوة للأخذ بنصيب من الحياة الدنيا إنما هو لأجل ألا يكون المسلم عالة على غيره ؛ وما فيه من دعوة إلى الجهاد إنما هو لإعلاء كلمة الله .

وهكذا يصل المفكر إلى النتيجة التالية بأن القرآن يدعو إلى التصوف ويحث عليه [1] . ويتابع الدكتور محمود مفنداً حجج مفكري التصوف

(١) د. عبد الحليم ـ المنقذ من الضلال ـ ص ٥٥

حجة حجة ، ومن أطرف تلك الحجج « يقول منكري التصوف : إنها أرستقراطية ، تتنافى مع روح الاسلام الديمقراطية ، حيث إنها ليست في متناول الجميع . . . التصوف حقاً أرستقراطية ، والديمقراطية إذا كان معناها التساوي في كل شيء فهي أسطورة من الأساطير » .

الحقيقة أن للتصوف جذوراً عميقة في الاسلام، ولقد بدا فعلاً على صورته البسيطة منذ الصدر الأول للاسلام ، فلوحظ على كثير من الصحابة ميلهم إلى الزهد والتقشف وإعراضهم عن الدنيا ، ولكن هذا لايمنع من أن يتأثر هذا التصوف الاسلامي فيما بعد بعبادات متفرقة .

بعد هذه اللمحة العابرة عن التصوف بصورة عامة ، وموقف الاسلام منه نعود إلى الغزالي ونرى لماذا اختار طريق الصوفية ؟ وما أثرها على تفكيره ؟ الخ . .

كان الغزالي من النشأة طالب حقيقة ، وملتمس معرفة ، وذلك لما عرف عنه من قوة خاطره وشغوف نفسه ، فلما درس الفقه ولم يجد فيه سكينة نفسه عاد يكب على الفلسفة باحثاً مستقصياً ، ولكن هل هدته الفلسفة ؟ بالطبـــع لا ، لأن رجلاً كالغزالي يحمل حساً شغوفاً ، وغريزة دينية لايستطيع أن يقنع نفسه بمجرد التفكير بومضة من التأمل . لقد رام الوقوع على هاد في أية ناحية من الفكر يهديه إلى الحق فلم يجد . فلا عجب بعد ذلك إذا غادر كل ذلك إلى التماس معرفة الله ، والاتصال الشخصي به في غير وساطة ، ولا طريق غير مباشرة بل عن الصوفية ، أو التجرد الروحي هناك انفسح الطريق أمام عينيه ، وهنالك بدأت حياته الجديدة في ظلال العزلة والتقشف ، ترك الدنيا ـ الحياة الفانية ـ إلى الحياة الدائمة الباقية .

هل هنالك من عوامل حملت الغزالي للاتجاه صوب الصوفية ؟

في الحقيقة هنالك عوامل كثيرة تجمعت ، ودفعت الغزالي صوب الصوفية :

١ – تربيته الصوفية الباكرة في بيت والده .

٢ – تربيته اللاحقة في كفالة صديق والده الصوفي .

٣ – أستاذه إمام الحرمين (أبو المعالي الجويني) كان صوفياً .

٤ – شيخ الغزالي الذي يدعى يوسف النساج كان أيضاً صوفياً .

٥ – أضف إلى ذلك تنازع المذاهب الدينية والفكرية في بيئته ، واستنادها إلى أسس مادية لم تكن في رأيه تحق الحق ، ولا هي في نفسها كانت قادرة على جمع الآراء وحل المشكلات .

٦ – وآخراً لا أخيراً المرض النفساني الذي كان يحول بين الغزالي وبين الوصول إلى الحقيقة ، كان كل هم الغزالي طلب الحقيقة ، والاطمئنان قبل الابتكار ، وهذا المرض النفساني كان نقطة تحول في حياة الغزالي إذ فترة طوافه في الشام والقدس وبيت الله الحرام كانت فترة روحية صافية من أكدار الدنيا ، نقية من شوائب المادة ، وهذا التحول في حياة الغزالي قد فتح عهداً جديداً في حياة الاسلام [1] .

« ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية » ولكن ما هي طريق الصوفية ؟ هي كما يقول الغزالي ، تتم بعلم وعمل ، وما هو حاصل علمهم ؟ « قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة » لماذا ؟ « حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله »

(١) الغزالي – أحمد فريد رفاعي ص ١٢١

وهكذا بدأ بمطالعة أهل التصوف، من هذه الكتب : « قوت القلوب في معاملة المحبوب » لأبي طالب المكي المتوفى عام ٣٨٦ هـ ببغداد ، وهو والاحياء يسيران في طريق واحد إلى غاية واحدة .

الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي سنة ٤٦٥ هـ ، وأثر هذه الرسالة واضح على كتاب الإحياء ، وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة . أما الذين تأثر بهم من الصوفية فهم : الامام الشافعي مات بمصر وكان عمره ٥٤ سنة ، المزني الذي قال عنه الشافعي « لو ناظر الشيطان لغلبه » ولد المزني ١٧٥ هـ ، وتوفي ٢٦٤ هـ والجنيد ، وهو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ، وغيرهم .

وظهر للغزالي نتيجة قراءاته الكثيرة هذه أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى ، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . هذا يدلنا على شدة تقدير الغزالي للصوفية وتعلقه بهم .

وبعد العلم يأتي العمل : ولكن ألا يكفي العلم وحده ؟ ألا يستوعب كل شيء ؟ يجيب الغزالي « بأنه أخص خواصهم - يريد بذلك الصوفية - ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات ، يضرب لذلك أمثلة فيقول : كم من الفرق بين من يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن

الفكر ، وبين أن يكون سكراناً بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء ...

وهكذا دخل الغزالي في بطون الصوفية ، وأدركها - كما ذكرنا - بالذوق لا بالعلم فقط وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء هي على التحقيق بدايات الأنبياء ، وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حين أقبل على غار حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه .. وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامح ، فهم قوم لا يشقى جليسهم . هكذا ذاق الغزالي الصوفية عن تجربة وملايسة ، وتجرد لها من كل متع المادة ولذاذات الجسد حتى ارتقى بها إلى درجة المكاشفات والمشاهدات .

لقد كان للعزلة الفضل الأكبر على الغزالي حيث وضع خلالها أكبر تآليفه وهو (إحياء علوم الدين) ولهذا الكتاب مكانة خاصة عند مفكري الاسلام ، وهو أجل ما خرج من كلام الغزالي ، وأروع ما كان من علمه وبحثه ودراسته .

والصوفية : هي التي انتشلت الغزالي من الشكوك التي تردى فيها ، وهي عنده مصدر العقيدة الدينية ومفتاح العلوم .

لقد كانت الصوفية بالنسبة للغزالي المخرج الوحيد من الشكوك التي راودت أفكاره حيث استهدى إلى النور الذي يشرق في النفس من مصدر فوق العقل .

وكما كان للصوفية فضل على الغزالي كذلك كان للغزالي الفضل الكبير على الصوفية يقول ماكدونالد : « كانت الصوفية موجودة في الاسلام قبل الغزالي إلا أنها كان ينظر إليها كأنها شيء مخالف للشرع مزر بمقام من

التبعة ، ولكن الغزالي لما ظهر في ميدان الحياة عزز الصوفية في تعاليمه أيما تعزيز ، وطبقها على الشرع وطبق الشرع عليها ، وزاد في تكريمها حتى صارت الصوفية ذات المكانة العليا بين عموم السنين بل جميع الفرق الاسلامية منذ ذلك الحين »[1].

ويقول الدكتور مدكور ص ٧٢ (كتاب إحياء العلوم) أضحى عمدة المتصوفين بلا استثناء .

ويقول دي بور : صار التصوف عند أهل السنة منذ أيام الغزالي دعامة يقوم عليها صرح العلم وتاجاً على مفرقه [2] .

هل لازم الغزالي الصوفية أم تخلى عنها في أخريات حياته ؟

رفاعي يقول : لم يهجر الغزالي صوفيته إلى آخر أيام حياته وإنما لزمها لزوم إيمان صحيح بها »[3] لكن خصومه خاصة ابن تيمية ـ الذي ألح في خصومته ـ قال : إنه قد ترك الصوفية في السنين الأواخر من حياته ، وأنه تبين أن طريقها لا تتحصل مقصودة ، فطلب الهدى عن طريق الأثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ، وكان كارهاً مما وقع في كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه .

كيف يمكن للغزالي أن ينكر الصوفية ، وقد ركن إليها بعد أن خبر الدراسات الأخرى ؟ لقد وجد في الصوفية حصنه الحصين فهو يرى أن علم القلوب لازم لزوم علم المرئيات والملموسات ، لأن هناك عالم الباطن وعالم الظاهر .

وفي نهاية المطاف نورد هذا المقتبس للدكتور زكي مبارك من كتابه

---

(١) أورده سليمان دنيا في كتابه « الحقيقة في نظر الغزالي » ص ٦١ نقلاً عن زويمر نقلا عن ماكدونالد .

(٢) ـ ديبور ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة أبو ريدة ص ١٦٨

(٣) الغزالي ـ أحمد فريد الرفاعي ص ١٨٥

« الاخلاق عند الغزالي » ص ٨٠ بدون تعليق لأن ما تقدم يكفي للاجابة والتعليق عليه . يقول مبارك : « التصوف ليس في جملته مما تدعو إليه الشريعة الاسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية وفارسية ويونانية نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم . . . ويمكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن وحب الخير وبغض الشر وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع في جوهره إلى روح الاسلام ، أما مايختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهد في الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة . نستطيع أن نشتم من هذا المقتبس بأن مبارك حاول من طرف خفي أن يقول : إن الغزالي قطع علائقه مع الناس ، ولم يأخذ بروح التصوف ومما يثبت اعتقادنا هذا مانقرؤه بعد ذلك عند مبارك : « والغزالي يساير الصوفية خطوة خطوة في ذم الناس وشكوى الزمان » .

ويبدو أن مبارك يتحامل على الغزالي تحاملاً لامسوغ له ، ولا يستند على حقائق ثابتة ، وربما يعود ذلك إلى أن المقتبس هو من الرسالة التي نال بها مبارك الدكتوراة ، وفي تلك الأثناء حاول مبارك التمرد على ما هو معترف عليه في أيامه ربما حباً بالظهور وإما لتثبيت شخصيته واستقلاله العقلي . والعلم عند الله .



الفصل الرابع

فلسفة الغزالي

كان الغزالي كالبلورة ينعكس عليه جملة ألوان ، وهذا ما جعل الناس يتنازعونه فالمتصوفة يرونه صوفياً ، والأشاعرة يرونه أشعرياً ، والفلاسفة يرونه فيلسوفاً .

ولقد عشنا معه وهو في قمة التصوف السني ، وعرفناه واضع أصول هذا التصوف ، وهو الذي منحه حياة وقوة ، والغزالي يعتبر من أكبر متكلمي الاسلام ، إن لم يكن أكبرهم .

لكن هل الغزالي فيلسوف حقاً ، وإن كان ، فما هي فلسفته ؟ بل لم حمل على الفلاسفة كل هذه الحملة والتي سنفصلها فيما بعد ؟

في الحقيقة أن الغزالي فيلسوف ، كان لابد له أن يتفلسف ، وأن يتفلسف في عمق وسعة . وذلك لأن الفلسفة في عهده كانت جزءاً من الثقافة الكاملة ، فلا يستكمل الدارس ثقافته إلا إذا ألم بقسط منها ، وذلك لأن الفلسفة أخذت مجراها إلى عقول المسلمين من موارد ميسرة وكتب متعددة إذ بدؤوا بالنقل عن غيرهم خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة ،

أما في القرن الرابع، فبدؤوا يفلسفون بأنفسهم ولأنفسهم، وكونوا مدرسة فلسفية على رأسها الفارابي والرئيس ابن سينا .

وكان لا بد للغزالي من أن يتفلسف أيضاً، فهو بحق فيلسوف من أكثر من جهة .

فمشكلة اليقين التي كانت الباعث الأساسي لكتاباته الغزيرة التي شن في بعضها حروباً في جبهات متعدده كجبهات الفقهاء والباطنية، والفلاسفة والمتكلمين، سنعيش في هذه الجبهات فيما بعد، ونكون حماة الغزالي من الخلف ـ هذه المشكلة هى بالواقع مشكلة فلسفية أساسية طالما أتعبت غيره من كبار الفلاسفة « إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فظهر لي أن العلم اليقين : هــــو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الخطاء والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين » .

والوجـه الآخر الذي يجعل الغزالي فيلسوفاً، هو الحقيقة التي تتميز بذلك اليقين، وليست هذه الحقيقة عنده إلا الحقيقة الصوفية « وهي موقف فلسفي أصيل حيال العالم والأشياء، وهذا الموقف له نظيره في عالم الفلسفه خاصة عند أمثال ديكارت وبوهمه »[1] .

والغزالي فيلسوف الدين الاسلامي ما في ذلك شك، وما يؤكد ما وصلنا إليه هو أن الموضوعات التي تناولها، والآراء التي أبداها إنما هي من صميم ما يسمى عند الفلاسفة : « بفلسفة الدين » .

وما هي فلسفة الدين ؟ هي كما يقول فرجيليوس فيروم : « بحث في موضوع

---

(١) من البحث الذي قدمه د. محمد ثابت فندي في مهرجان الغزالي بعنوان (فلسفة الدين عند الغزالي) ص ٨٦

الدين من الناحية الفلسفية . . . ومن مسائلها طبيعة الدين ووظيفته وقيمته صلة الله بالانسان من حيث الحرية والمسؤولية ـ الكشف الصوفية ـ الصلاة واستجابة الدعاء . . . » وموضوع فلسفة الدين يتابع فيروم « ليس موضوعاً لبحث فلسفي حر ، وإنما هو فلسفة دين معين ، إنه حينئذ دفاع صريـــح ، أو مقنع عن دين سبق الايمان به »

الغزالي : إذا وضعنا نصب أعيننا تلك المسائل التي يذكرها فيروم قد استوعبها جميعاً بل وأبعد من ذلك فقد جاوزها بكثير إلى ما هو أبعد مـــدى .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن للغزالي فلسفة ، وأن فلسفته دينية تقول بإله قادر عالم فعال لما يريد ، خلق العالم بقدرته فليس ثمة مادة ولا زمان قديمـــان .

١ ـ ما هي المصادر الفلسفية للغزالي .

أول من انكب من المسلمين على دراسة الفلسفة هو الكندي ، وكانت الفلسفة التي تأثر بها هي الأفلاطونية المحدثة التي كانت مزيجاً من الفلسفة والتصوف الديني كما بينا عند الكلام عنها .

بعد ذلك جاء الفارابي المعلم الثاني ، وكان كل همه أن يثبت اتفاق الفلسفة والإسلام لأن كل منهما حق ، والحق لا يتعدد ـ الفـارابي يتخيل نظاماً فلكياً أساسه أن في كل سمـاء قوة روحية أو عقلاً مفارقاً يشرف على حركتها ومختلف شؤونها ، وآخر هذه القوى — وهو العقل العاشر ، موكل بالسماء الدنيا والعـالم الأرضي فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوي والسفلي ، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العـلوي ، ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة .

أما إخوان الصفا ، فقد كان دستورهم : « إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتماعية ، وبانتظام الفلسفة اليونانية بالشريعة العربية يحصل الكمال » .

والرئيس ابن سينا وضع كتباً كثيرة في المنطق والإلهيات ، ولا عجب فهو خليفة الفارابي الأعظم وتلميذه ، والرجلان متضافران ومتكاملان . وهو يرى أن غاية السعادة ليست إلا مجرد اتصال بين العبد وربه يحظى فيه الانسان بضرب من الاشراق ،وهذا الاشراق وذاك النور لا يصدران عن الله مباشرة بل بواسطة العقل الفعال « قد يقولون إن النفوس الناطقة إذا عقلت شيئاً فإنها تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال وهذا حق » قالوا : واتصالها بالعقل الفعال هو أن تصير هي نفس العقل الفعال ، لأنها تصير العقل المستفاد ، والعقل الفعال هو نفسه يتصل بالنفس فيكون العقل المستفاد . . إن قول القائل : إن شيئاً يصير شيئاً آخر فصار واحداً آخر قول شعري غير معقول ، فإنه إن كان كل واحد من الأمرين موجوداً فهما اثنان متميزان ، وإن كان أحدهما غير موجود ، فقد بطل الذي كان موجوداً .

أما أشهر من تأثر بالفلسفة اليونانية في ذلك العصر ، فهو ابن مسكويه الذي بحث في تعاليم أفلاطون وأرسطو وجالينوس ، وأراد أن يخرج هذه التعاليم بتعاليم الاسلام .

يقول مبارك متحاملاً على الغزالي كعادته « لم — يجز الغزالي — هؤلاء إلا جزاء سنمار » ويتابع قائلاً : إذ صب جام غضبه وسخطه على أصحابها — يريد رسائل إخوان الصفا — ، وحكم بكفر الفارابي وابن سينا » ويستطرد مبيناً شدة تأثر الغزالي بهم خاصة بمسكويه حيث يورد مقاطع لابن

مسكويه وأخرى للغزالي يقول مسكويه : « إن نفس الصبي ساذجة – لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأي ولا عزيمة تمليها من شيء إلى شيء » يقول الغزالي في المعنى ذاته : « والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة » ويشتد تحامل مبارك على الغزالي حين نقرأ له يقول : « إنه – أي الغزالي – صدى لمن قبله ، وإن نصيبه من الابداع قليل » .

هم الغزالي الأكبر هو البحث عن الحقيقة ، وتحديد طرقها ، والدفاع عنها ، ونشرها باللسان وبالقلم ، ولقد قام بهذه المهمة بجرأة كبرى ونشاط عظيم « لقد اقتحم لجة هذا البحر العميق » دون خوف أو وجل « وأخوضه خوض الجسور لا خوض الجبان ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة » .

لكن لماذا طلب الحقيقة وسعى وراء المعرفة متقفياً آثارها ؟ أول ما يتبادر إلى ذهننا هو الرغبة النظرية في المعرفة « وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي » . ولكن هذه الرغبة لم يكن هناك من يدفعها بقوة طبعاً . كان هناك أمرين ضاعفا هذه الرغبة وكانا كالمهاز .

١ – كثرة الفرق والشيع واختلافها وتضاربها .

٢ – تفتيش الغزالي عن الحقيقة في بدء أمره – إلى التعري عن كل التعاليم التقليدية ، والشك في المعارف الحسية والعقلية ، فأصبحت نفسه خاوية لا أساس لها ، وهذا التعري لنفسه كان باعثاً بل حافزاً قوياً للسعي وراء الحقيقة .

أما السبب الثاني الذي من أجله طلب الغزالي الحقيقة فهو قيمة العلم ،

وأهمية المعرفة بالنسبة له فهو — العلم — أشرف ما يمكن للانسان طلبه في هذه الحياة ، وللعلم بحد ذاته أهمية من نواح ثلاث :

أ — الخاصة التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم ، فالانسان إنسان بما هو شريف لأجله ، والانسان ـ كما يقول الغزالي ـ لم يخلق إلا للعلم .

ب — العلم فضيلة على الاطلاق من غير إضافة ، وشدة العدو فضيلة في الفرس ، وليست فضيلة على الاطلاق ، إذ لا قيمة لها إلا بالنسبة إلى الغرض الذي تؤديه ، والعلم لذيذفي نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، وما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره .

ج — العلم نوع من أنواع السيطرة على الكائنات التي ليس في مقدور الانسان الاستيلاء عليها بالقهر والسلطان .

أما السبب الثالث في رأي كريم عزقول ، فهو إيمان الغزالي برسالة أتى هذا العالم ليحققها. هذه الأسباب هى التي من أجلها سعى الغزالي وراء الحقيقة ، ولكن أهمها : الرغبة الفطرية في المعرفة ، لأن هذه الرغبة دفعته للشك الذي به كون فلسفته ، أو بالأحرى الشك الذي قاده إلى الصوفية وبالتالي ليكون فيلسوف الاسلام .

وفي هذا يقول دي بور : « إن الغزالي درس الفلسفة ليس مجرد شغف بالعلم ، بل كان قلبه يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله »[1] .

الغزالي أبرع من سكب التعاليم الدينية وأساليب إثباتها والدفاع عنها

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام دي‌بور ص ٢٠٠

في قوالب عقلية فلسفية ، فهو رجل يريد أن يؤمن ، ويخالف محاولات الفلاسفة في توفيق الفلسفة والدين ليفصل بينها نهائياً ، ففلسفته هي تعبير عن فلسفة الدين الاسلامي ، ومختلفة تماماً عن فلسفات الفقهاء ، والمتكلمين ، والمتفلسفة الاسلامية جميعاً .

لكن أين نجد فلسفة الغزالي ؟ بالحقيقة إن رد الغزالي على أصناف الطالبين في عصره المتكلمين ، والباطنية ، والفلاسفة يعتبر جزءاً من صميم فلسفته إن لم يكن أهم جزء .

ولقد تناولنا رد الغزالي على المتكلمين والباطنية ، وما تبقى لنا هو قصته مع الفلاسفة ، الموجودة في كتابيه «تهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة» .

والغزالي في رده لم يهاجم المذهب المحارب جملة وعموماً ، وإنما سار على غرار أب لمجمع ديني ، أو رئيس لمنظمة ثقافية ، فلا يعين الغزالي في المذاهب بالتهم نقاطاً ولا مسائل يلوح له رأي الخصم فيها موجباً للتحريم ، وإنما يكافح هذه الآراء الخاصة بالتتابع مستعيناً بجدل قوي حاد ، وأول ما يفعل هو أنه يورد الرأي الذي يكافح ، وهو يورده مزيناً إياه بجميع أدلته معبراً إياه أحياناً طلاوة بلاغته الخاصة ، وهو يجعل له على ما نعتقد من الضبط مايحاول فيه ابن رشد بعد زمن مع ذلك [1] .

والمهمة التي نهض إليها الغزالي في التهافت والمقاصد لها ناحيتان إيجابية وسلبية ، فالناحية السلبية النقد ، وكما صرح في التهافت إنه لا يقصد إلا هدم مذاهب الفلاسفة ، وإظهار ما فيها من تناقض وعجز وتلبيس .

أما الناحية الإيجابية إثباتية ، فالغزالي بإظهاره فساد مذهب الفلاسفة

---

(١) البارون كارادرفو في كتابه عن الغزالي ص ٦١

وقصور أدلتهم يريد أن يقرر إفلاس العقل ليمهد نفوس الناس إلى الإقبال على الدين والتصوف ، وبعبارة أدق أراد أن يوجههم إلى القلب الذي يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف بعد تصفية النفس بالعبارات والرياضيات الصوفيـة :

(ثم إني ابتدأت بعـد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً أنه لايقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً، ولم أر أحداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك)[1] .

ولكن اختلاف الفلاسفة طويل ونزاعاتهم كثيرة فكيف يمكن للغزالي حصرها جميعاً والرد عليها ؟ فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول ، فإنه رتب علومهم وهذبهـا بزعمهم ، وحذف الحشو من آرائهم ، وانتقي ما هو الأقرب إلى أصول أهوائهم وهو أرسطوطاليس ... ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية والمنطقية لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية[2] .

ويقول الغزالي : إن من متفلسفة الاسلام الذين ترجموا أرسطوطاليس : الفارابي وأبو نصر وابن سينا ، وهكذا يبدأ الغزالي بالرد على الفلاسفة من خلال ما نقل الفارابي وابن سينا في مقـاصد الفلاسفة يعدد الغزالي علوم الفلاسفة التي سيرد عليها في التهافت فيقول : وأعرفك أولاً أن علومهـم

---

(١) المنقذ ص ١٨

(٢) تهافت الفلاسفة ص ٣

أربعة أقسام : الرياضيات ، والمنطقيات ، والطبيعيات ، والالهيات [1] .

لقد سبق وذكرنا تصنيف الغزالي للفلاسفة أما هنا فنتابع رده على الفلاسفة الالهيين :

١ ـ الرياضيات وهي تتعلق بالحساب والهندسة ، وليس في مقتضياتها ما يخالف العقل . الغزالي هنا يعول على العقل ، لأنه كان الأساس الذي أقام عليه الفلاسفة صرح فلسفتهم ـ هو نفسه ـ العقل المعول الذي يهدم الغزالي به صرح الفلسفة الذي شيدوه .

ولكن رغم عدم تعلق هذه الفلسفة بالأمور الدينية إلا أنه تولد عنها آفتان .

أ ـ الآفة الأولى : أن الناظر لهذه العلوم يعجب لدقة براهينها وتماسك منطقها فيحسن اعتقاده بالفلسفة .

ب ـ الآفة الثانية : المسلم الجاهل ينكر كل علم منسوب إلى الفلاسفة وهكذا ينكر جميع علومهم ويدعي جهلهم بها .

المنطقيات لايتعلق شيء منها بالدين نفياً أو إثباتاً ، لكن البراهين التي قدموها لاتفي بشروط المقاصد الدينية « فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ نادر فيها ، وإنما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعاني والمقاصد ، إذ غرضها تهذيب طرق الاستدلالات وذلك مما يشترك فيه النظار » [2] . والغزالي يدعو مخلصاً إلى الأخذ بالمنطق للتوصل إلى حقيقة العلم إنه من لايحيط به ، فلا ثقة بعلومه أصلاً ، وسنتوسع في ذلك عند الحديث عن المنهاج الذي اتبعه .

---

(١) مقاصد الفلاسفة ـ تحقيق سليمان دنيا ص ٣١

(٢) مقاصد الفلاسفة ـ تحقيق دنيا ص ٣٢

٣ ـ الطبيعيات تبحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام كالماء والهواء، والتراب والنار، والحيوان... وعن أسباب تغيرها وامتزاجها واستحالتها «فلا يمكن الحكم عليها بغالب ومغلوب».

٤ ـ الإلهيات ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ماشرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها، والصواب نادر فيها.

أكثر أغاليط الفلاسفة في الالهيات والطبيعيات، وتبلغ عشرين مسألة يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبع عشرة.

أهم هذه المسائل نظرية قدم العالم، والقول بأن الله لا يعلم إلا الكليات لا الجزئيات، وإنكار بعث الأجساد، والقول بأن الأرواح وحدها هي التي يجوز عليها الفناء. والغزالي حين يبطل هذه النظريات فذلك لأنها تخالف المعتقد الاسلامي نصاً وروحاً.

٢ ـ القول بقدم العالم:

أجمع الفلاسفة على قدم العالم منطلقين من حجج وأسانيد فندها الغزالي واحدة واحدة. يقول الفلاسفة موضحين: إن كل حادث مسبوق بمادة يحدث فيها، ولا يمكن للحادث الاستغناء عن المادة، ولذا فإن المادة نفسها غير حادثة، ولا يوجد ما هو حادث غير الصور، والأعراض والكيفيات التي تطرأ على المادة. وعند الغزالي لايوجد أي فرق منطقي بين مسائل اللانهاية في الزمان والمكان، فكما أن الفلاسفة قالوا: لايوجد وراء العالم المشغول بالعالم ملاء ولا خلاء قال الغزالي: لايوجد وراء زمن حياة العالم قبل ولا بعد، ولا يوجد خارج العالم امتداد مطلقاً، فالزمان مخلوق كالعالم.

ولما عارضه خصومه بقولهم : أنت تعرف مع ذلك أن الله كان قادراً على خلق العالم قبل صنعه إياه بمئة سنة أو مئتي سنة أو ثلاثمئة سنة ، لذا فأنت مضطر إلى التسليم بدوام قابل للقياس أي بزمان ، أجابهم برده البرهان عليهم وتطبيقه على المكان ، وذلك كما أنكم تعرفون بأن الله كان يستطيع أن يعطي العالم مئة ذراع أو مئتي ذراع أو ثلاثمئة ذراع زيادة ترون أنكم محمولون على التسليم إذن بوجود امتداد خارج العالم قابل للقياس أي بوجود مكان ، ويجيب الغزالي مستنتجاً أن مانضيفه إلى ماوراء الحدود للعالم على هذا الوجه ليس في الحقيقة غير وليد خيالنا ـ أجل لايستطيع الخيال أن يمنع نفسه من إطالة الزمان والمكان ، غير أنه لاينبغي للعقل أن يخضع لدواعي الخيال ، ولذا فإن الغزالي يكون قد تمثل الزمان والمكان مثل شرطين لممارسة صفتنا التخيليه ، أو ممارسة إدراكنا الحسي مثل حقائق خارجية كما هو الأحرى . ويشهد هذا المفهوم الذي يعبر عنه تكراراً وبقوة بالغة على شجاعته وعمق تفكيره الفلسفي .

ويقول الفلاسفة : إن العالم لم يزل موجوداً مع الله غير متأخر عنه بالزمان كوجود المعلول مع العلة والنور مع الشمس ، وإن تقدم البارىء على العالم تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان ، كتقدم الواحد على الاثنين ، وتقدم العلة على المعلول مثل تقدم حركة الشخص على حركة الظل التابع له ، وحركة اليد في الماء مع حركة الماء ، فإنها متساوية في الزمان ، وبعضها معلول إذ يقال تحرك الظل بحركة الشخص، وتحرك الماء بحركة اليد في الماء ، ولا يقال تحرك الشخص بحركة الظل ، وتحرك اليد بحركة الماء وإن كانت متساوية ، فإن أريد تقدم البارىء على العالم هذا لزم أن يكون حادثين أو قديمين

واستحال أن يكون أحدهما قديماً والآخر حادثاً [١] .

يرد الغزالي على ذلك « ونعني بقولنا : إن الله متقدم على العالم والزمان ، أنه كان دون عالم ، ثم كان ومعه عالم ، ومفهوم قولنا : كان ولا عالم : هو ذات الباريء وعدم ذات العالم فقط . . ومفهوم قولنا : كان ومعه عالم : وجود الذاتين فقط ، ونعني بالتقدم انفراده بالوجود فقط والعالم كشخص واحد لو قلنا كان الله تعالى ولي عيسى مثلاً ثم كان وعيسى معه لم يتضمن اللفظ إلا وجود ذات وعدم ذات ثم وجود اثنين وليس من ضرورة ذلك تقديم شيء ثالث . وإن كان الوهم لايسكت عن تقدير ثالث ، فلا التفات إلى أغاليط الأوهام » [٢] .

والاعتراض على ماتقدم به الفلاسفة من وجهين : أن العالم حدث بإرادة قديمة اقتضت وجوده في الوقت الذي وجد فيه ، وأن يستمر العدم إلى الغاية التي استمر لها ، وأن يبتدىء الوجود من حيث ابتدأ ، وأن الوجود مثله لم يكن مراداً فلم يحدث ذلك فما المنع من هذا الاعتقاد .

الاعتراض الثاني كما يسرده الغزالي : استبعدتم حدوث حادث من قديم ولا بد لكم من الاعتراف به فإن في العالم حوادث ولها أسباب ، فإن استندت الحوادث إلى الحوادث إلى غير نهاية فهو محال ، وليس ذلك معتقد عاقل، ولو كان ذلك ممكناً ، لاستغنيتم عن الاعتراف بالصانع ، وإثبات واجب وجود ، هو مستند الكائنات ، وإذا كانت الحوادث لها طرف تنتهي سلسلتها إليه ، فيكون ذلك الطرف هو القديم ، فلا بد إذن على أصلهم من تجويز صدور حادث من قديم .

---

(١) التهافت ص ١٤ .

(٢) التهافت ص ١٤

دليل آخر للفلاسفة على قدم العالم : « وجود العـالم ممكن قبل وجوده إذ يستحيل أن يـكون ممتنعاً ثم يصير ممكناً ، وهـذا الإمكان لا أول له أي : لم يزل ثابتاً ولم يزل العالم ممكناً وجوده إذ لا حال من الأحوال يمكن أن يوصف العالم فيه بأنه ممتنع الوجود ، فإذا كان بالامكان لم يزل فالممكن على وقت الامكان أيضاً لم يزل ، فإن معنى قولنا : إنه ممكن وجوده أنه ليس محالاً وجوده ، فإن كان ممكناً وجوده أبداً لم يكن محالاً وجوده أبداً ، وإلا فإن كان محالاً وجوده أبداً ، بطل قولنا : إنه ممكن وجوده أبداً » ...

يعترض الغزالي على هذه الحجة بقوله : « العالم لم يزل ممكن الحدوث فلا جرم ما من وقت إلا ويتصور احداثه فيه ، وإذا قدر موجود أبداً لم يكن حادثاً ، فلم يكن الواقع على وفق الإمكان بل خلافه وهذا كقولهم في المكان وهو أن تقدير العالم أكبر مما هو أو خلق جسم فوق العالم ممكن .. ويذهب الفلاسفة إلى القول : إن كل حادث إما أن يكون ممكن الوجود ، أو ممتنع الوجود ، أو واجب الوجود .

ومحال أن يكون ممتنع الوجود ، لأن الممتنع في ذاته لا يوجد قط .

وكذلك محال أن يكون واجب الوجود لذاته ، فإن الواجب الوجود لذاته لا يعدم قط .

وهكذا يصل الفلاسفة إلى « أنه ممكن الوجود بذاته . أي العالم - فإذن إمكان الوجود حاصل له قبل وجوده — أو إمكان الوجود وصف إضافي لا قوام له بنفسه ، فلا بد له من محل يضاف إليه، ولا محل إلا المادة فيضاف إليها .

رد الغزالي على دليل الفلاسفة هذا يتلخص في أن الامكان الذي

ذكره الفلاسفة يرجع إلى قضاء العقل ، فكل ما قدر العقل وجوده فلم يمتنع تقديره سميناه ممكناً ، وإن امتنع سميناه مستحيلاً ، وإن لم نقدر على تقدير عدمه سميناه واجباً ، فهذه قضايا عقلية لا تحتاج إلى موجود حتى تجعل وصفاً له بدليل أمور ثلاثة يذكرها الغزالي في كتابه التهافت .

ويواصل الغزالي نقده فيبذل ما في وسعه في أن يثبت لخصومه أنهم إذا كانوا يسلمون بلا نهاية الزمان الماضي ، فإنه لا يوجد لديهم أي سبب لرفضهم إمكان الرجعي إلى لا نهاية العلل ، ومن ثم يكونون عاجزين عن إثباتهم أن الله صانع العالم ، وأن العالم فعله ، ويقول الغزالي ساخراً : أجل يوجد دهريون يعتقدون أن العالم أزلي ، وأنه لا صانع له ، غير أن هؤلاء الزنادقة أقرب إلى المنطق من الفلاسفة الذين يعتقدون — إذ يؤكدون قدم العالم — أن من المفيد بعد هذا إعطاء العالم صانعاً . »

ويستطرد الغزالي مخاطباً الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم : إذا شاهدتم تعاقب الليل والنهار ، رأيتم في ذلك حادثان يوجد لكل واحدة منها بداية ، على حين لا يوجد لمجموعها بداية مطلقاً . وهذا ما يمكن أن تكون سلسلة العلل .

أما مسألة أبدية العالم وفنائه، فقد قال الغزالي : إنه باتفاق عام لا يمكن الفصل فيها بطريق العقل ، وإنما هي من نابض الوحي .

ومسألة أخرى يقول بها الفلاسفة وهي أنه يستحيل تأخير وجود العالم عن وجود علته ، وهذا الاعتراض يقوم على أساس ما يجب من تلازم وتقابل بين العلة ومعلولها .

الغزالي يرد على ذلك بعد أن يمحص الفكرة الأساسية في هذا الاعتراض — فيتساءل : هل هي قضية بديهية ضرورية أم قياسية استدلالية ،

إنها ليست استدلالية ، لأن الفلاسفة لم يبرهنوا عليها بدليل ، وهي كذلك ليست بديهية وإلا لما أمكنهم إنكارها ، ويشير الغزالي إلى أن مقايسة الارادة القديمة بالارادة الحادثة مقايسة فاسدة .

يقول الفلاسفة : العالم قديم والزمان قديم ، ومثله الحركة التي هو مقياسها . يرد الغزالي على ذلك رداً مفحماً بقوله : الزمان مقرون بالمكان ولا فرق بينهما غير قولك (قبل وبعد) عندما تريد الزمان و (فوق وتحت) عندما تريد المكان ، وبالتالي افتراض وجود زمان قبل وجود العالم من أغاليط الوهم .

رأي الغزالي الأخير يدنو كثيراً من نظرية الفيلسوف « كانت » التي تقول : إن الزمان والمكان ليسا من المعاني الكليـــة ، بل صور سابقة للتجربة نستعين بها على إدراك العالم الخارجي .

٣ ـ الله لا يعلم الجزئيات :

هذه مسألة أخرى ذهب إليها الفلاسفة وهي تناقض الثواب والعقاب ، لذا كان ضرورياً للغزالي أن ينبري لدحض هذه المسألة بكل قوة .

يقول الفلاسفة : « إنه ـ أي الله ـ يعلم الأشياء علما كلياً لا يدخل تحت الزمان ولا يختلف بالماضي والمستقبل ، والآن مـــع ذلك رغم أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا أنه يعلم الجزئيات بنوع كلي ولا بد أولاً من فهم مذهبهم ثم الاشتغال بالاعتراض وتبين هذا بالمثال ، وهـو أن الشمس مثلاً تنكسف بعد أن لم تكن منكسفة ثم تتجلى فيحصل لها ثلاثة أحوال أعني الكسوف حالة هو فيها معدوم منتظر الوجود أي سيكون ، وحالة هو فيها موجود أي هو كائن،

وحالة ثالثة هو فيها معدوم ولكنه كان من قبل »[1] هـذا القول منسوب لابن سينا — لذلك فانتقاد الغزالي هنا بالطبع — موجه لابن سينا وأهل مذهبه .

« يقولون — أي الفلاسفة — : إن الله لا يعلم عوارض زيد وعمر وخالد وإنما يعلم الانسان المطلق بعلم كلي ويعلم عوارضه وخواصه .... زيد مثلاً لو أطاع الله تعالى أو عصاه لم يكن الله عالماً بما يتجدد من أحواله لأنه لا يعرف زيداً بعينه ، فإنه شخص وأفعاله حادثة بعد أن لم تكن وإذا لم يعرف الشخص ، لم يعرف أحواله وأفعاله بل لا يعلم كفر زيد ولا إسلامه ، وإنما يعلم كفر الانسان وإسلامه لا مخصوصاً » .

يقول الغزالي: حال الكسوف مثلها مثل الشخص الواحد يكون على عينيك ، ثم يرجع إلى قدامك ، ثم إلى شمالك ، فتتعاقب عليك الاضافات والمتغير ذلك المتنقل دونك ، وهكذا ينبغي أن تفهم الحال في علم الله تعالى « فإنا نسلم أنه لا نعلم الأشياء بعلم واحد في الأزل والأبد والحال لا يتغير وغرضهم نفي التغير وهو متفق عليه » .

يذكر الغزالي أن الاختلاف والتباعد بين الأجناس والأنواع المتباينة أشد من الاختلاف الواقع بين الشيء الواحد المنقسم بانقسام الزمان .

هذه باقتضاب بعض آراء الفلاسفة في حصر علم الله بالكليات ، ورد الغزالي عليها وكان طبيعياً من الغزالي أن يهتم بهذه المسألة لأنها تثبت وجود العقائد والثواب في الآخرة .

---

(١) التهافت ص ٥٣

٤ - إنكار بعث الأجساد :

قال الفلاسفة : إن النفس تبقى بعـد الموت بقاء سرمدياً إما في لذة لا يحيط الوصف بها لعظمها ، وإما في ألم لا يحيط به الوصف لعظمه ، ثم قد يكون ذلك الألم مخلداً، وقد ينقضي على طول الزمن، ثم تتفاوت طبقات الناس في درجات الألم واللذة تفاوتاً غير محصور ، كما يتفاوتون في المراتب الدنيوية ولذاتها تفاوتاً غير محصور ، واللـــذة السرمدية للنفوس الكاملة الزكية ، والألم السرمدي للنفوس الناقصة الملطخة ، والألم المنقضي للنفوس الكاملة الملطخة ، فلا تنال السعادة المطلقة إلا بالكمال والتزكية والطهارة ، والكمال بالعـلم ، والزكاء بالعمل ، ووجه الحاجة إلى العلم : أن القوة العقلية غذاؤها ولذتها في درك المعقولات ، كما أن القوة الشهوانية لذتها في نيل المشتهى ، والقوة البصرية لذتها في النظر إلى الصورة الجميلة وكذا سائر القوى ، وإنما يمنعها من الاطلاع على البدن وشواغله وحواسه وشهواته والنفس الجـاهلة في الحياة الدنيا حقهـا أن تتألم بفوات لذة النفس لكن الاشتغال بالبدن ينسيها نفسها ويلهيها عن ألمها كالخائف لا يحس بالألم »[1] .

يقول الغزالي ويحاول أن يثبت بأن اللذة العقلية إشراق من اللـذات الجسمانية ، بدليل أمرين « أحدهما أن حال الملائكة أشرف من حال السباع والخنازير من البهائم ، وليس لها اللذات الحسية من الجماع والأكل ، وإنما لها لذة الشعور بكمالها وجمالها الذي خصت به في نفسها في اطلاعها على حقائق الأشياء وقربها من رب العالمين . . . والثاني : أن الانسان أيضاً قـد يؤثر اللذات العقلية على الحسية ، فإن الذي يتمكن من غلبة عدو والشماتة به

---

(١) التهافت ص ٨١

فهو يهجر في تحصيلها ملاذ الأنكحة والأطعمة ، بل قد يهجر الأكل طول النهار في لذة غلبة الشطرنج والنرد مع خسة الأمر فيـــه ولا يحس بألم الجوع ، وكذلك المتشوف إلى الحشمة والرئاسة إذا كان يتردد بين احترام حشمته وبين قضاء الوطر من عشيقته مثلاً بحيث يعرفه غيره وينشر عنه فيؤثر الحشمة ، ويترك قضاء الوطر ، ويستحقر ذلك محافظة على ماء الوجه » .

ويتابع الفلاسفة سرد حججهم فيقولون : إن ماجاء في القرآن من أوصاف النعيم والجحيم المادية إنما هو من قبيل الرمز والتمثيل ، وهكذا انتهوا إلى القول بأن النفس وحدها خالدة لأنها جزء من النفس الكلية .

ويرد الغزالي على كل حجج الفلاسفة في المسائل (١٨-١٩-٢٠) كما ذكرنا سابقاً ، والدليل الأخلاقي الذي يورده الغزالي رداً على الفلاسفة منوط بعد الحقوق والواجبات ، فالجسد شارك النفس في أعمالها لذلك من الطبيعي أن يتعين عليه القيام بالواجبات والتكاليف .

وهناك دليل آخر يعتمد عليه الغزالي وهو دليل القدرة الالهية في عجائب صنع الخالق ، فتعلق النفس بجسمها الجديد بعد الموت ليس بأعجب من تعلقها بالجسم الترابي الذي خرج من العدم إلى الوجود .

هذه هي المسائل الثلاث التي أراد الغزالي فيهـــا أن يكفر الفلاسفة وذلك من أجل إثبات الثواب والعقاب ، ودفاعاً عن الدين ، فقد كان الدين هو المسيطر الأول على عقل الغزالي وتفكيره ، وما قامت شكوكه الأولى في إحكام العقل إلا من أجل الدفاع عن الدين وحقيقته ، وبمقدرة فائقة استطاع رد أصل الدين إلى الكشف الباطني والايمان القلبي ، لكنه ـ كما يقول البعض من المفكرين ـ عجز عن تحديد نطاق كل من الدين والعقل والوقوف بهما عند الحد اللازم ، إنه لم يتردد في إخضاع العقل للدين عندما اضطر إلى

إثبات معجزات الأنبياء ، وعلى نقيض مافعل الفلاسفة إذ كانوا يخضعون الدين للعقل إذا وجدوا بينهما تبايناً .

لنر كيف أخضع الغزالي العقل للدين في إثبـــات معجزات الأنبياء والدليل على صحة نبوتهم .

يقول الغزالي : إننا وجدنا في الانسان نموذجاً من مدركات النبوة وهو « النوم » فإن النائم يدرك ماسيكون من الغيب ، ويرى ويسمع ، مع أن بصره وسمعـــه في حالة عقله ، فكما أن العقل طور تدرك به أنواع من المعقولات بعيد عن الحس ، كذلك النبوة طور آخر يظهر فيه نور الغيب ولا يدركه العقل ، فالرؤيا كعلم الطب والنجـوم تدل على أن في الانسان شيئاً من خواص النبوة ، وهي تقرب هذا الادراك من العقل .

لم يجد الغزالي علماً يقيناً ولا وسيلة ليميز الحق من عكسه ، فذهب يبحث عن هذا العلم ويتلمسه، لأن كل ماسواه لا ثقة به ولا أمان معه ، ثم انتهى بعد تطواف مستطيل في أفق الفكر إلى الايمان العميق بالدين والنبوة فانكمش في بحث خواصها ودراسة أحاديثها الشريفة .

بحث النبوة جاء بالنسبة للغزالي نقطة الانطـلاق ونهاية المطاف . فعلى ضوء الايمان بها بنى منهجية تفكيره ، وهدم الفلسفة ، وبهـا اهتدى إلى راحة اليقين .

فهو يرى أن الانسان خلق ساذجاً ، ووهب طاقة الادراك المتـدرج من الحواس إلى التمييز فإلى العقل الذي يدرك الواجب والجائز والمستحيل وكما يقصر النظر عن إدراك المسموعات كذلك يعجز العقل عن تفهم ما هو وراء طوره ، مما ينطوي عليه المستقبل والغيب .

كما أن جسد الانسان محتاج في مرضه إلى علاج ، كذلك يحتاج القلب

الذي هو موضوع الروح إلى دواء ، ومعرفة الله علاج لهذا القلب . ومخالفة الهوى ترياقه « والأنبياء هم أطباء أمراض القلوب » .

اليقين والايمان بالنبوة على درجات ثلاث :

١ - إيمان العامة المستند إلى الخبر ، فهم يصدقون ما أخبرهم به أهل الثقة ، كأن يقال لهم : إن فلاناً في الدار .

٢ - يصل العلماء إلى الايمان واليقين بالاستنباط ، فهم قد سمعوه يتكلم فاستنبطوا أنه في الدار .

٣ - وفي أعلى هذه المراتب يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب حيث رفعت دونهم الحجب ، واستقامت لهم شهادة الحق ، هؤلاء غدوا المقربين فتلقوا علماً كونياً يعجز عنه استنباط العلماء ، وبان لهم أن الدين ذوق باطني ليس بمجرد أحكام شريعة ، وأقروا بثبوت طور فوق طور العقل ، فهم قد دخلوا الدار ، ورأوا الرجل بأعينهم .

مذهب التعليمية وما ذكره الغزالي عنهم : التعليمية - كما قال في المستظهر - هي تلك الفئة الضالة المضلة التي عم شرهـا البلاد ، وتسربت تعاليمها إلى كثير من النفوس الضعيفة التي يسهل خداعها بالتعاليم البراقة ، حيث يختفي وراء ذلك البريق الزائف الزيغ بكل معناه . وممـا زاد في خطر هؤلاء أنهم يدعون الاسلام في الظاهر ، أما ما خفي - وما خفي عظيم - فذلك هـو الداء الدفين الذي لا يطلع عليه إلا من أخذ العهد عليهم .

زعم التعليمية أنه لا بد أنه يوجد في كل زمان إمام معصوم يرجـع إليه في كل ما يتعلق بأمور الدين ، فيكون لديه لكل مشكلة حل والصواب ما يفتي به وهكذا اتفقت كلمتهم على إبطال الرأي ، ودعوا إلى التعليم من الإمام المعصوم ومن هذا سموا بالتعليمية . والإمام المعصوم « يجب أن يكون

شخصاً من عترة (رسول الله) هكذا يزعمون، وطبيعي أن يكون الامام المعصوم علي رضى الله عنه وتنتقل الامامة في أعقابه ولداً فولداً. وأملى لهم زعمهم أن يضعوا ذلك النص على رسول الله ﷺ: « الامامة بعدي لعلي ـ وبعده لأولاده ». يسألهم الغزالي « وبماذا عرفتم صحة كونه معصوماً ـ أي إمامهم ـ ووجود عصمته: أبضرورة العقل، أو بنظره أو سماع خبر متواتر عن رسول الله عليه السلام يولد العلم الضروري » ويتابع الغزالي مبيناً كيف أنه من المستحيل أن يكون معصوماً.

« والعلم الانساني ـ بنظر الغزالي ـ تحصيله عن طريقين: التعليم الانساني والتعليم الرباني » (١)

١ ـ التعليم الانساني طريق معهود، ومسلك محسوس يُقِرُّ به جميع العقلاء.

٢ ـ أما التعليم الرباني، فهو على وجهين أحدهما من خارج وهو التحصيل والآخر من الداخل وهو الاشتغال بالتفكر، والتفكر من الباطن بمنزلة التعليم في الظاهر.

الوجه الأول من التعليم الرباني: هو إلقاء الوحي، وهو أن النفس إذا أكملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة، ودرن الحرص والأمل، وتفصل نظرها عن شهوات الدنيا، وينقطع نسبها عن الأماني الفانية، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها

أما الوجه الثاني، فهو الالهام، وهو تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الانسانية على قدر صفائها وقبولها، وقوة استعدادها والوحي هو تصريح الأمر الغيبي والالهام هو تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً

---

(١) النفحات الغزالية ـ أبو بكر عبد الرزاق ص ١٠٤

نبوياً ، أما العلم الذي يحصل عن الالهام فيسمى علماً لدنياً ، وهو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب فارغ لطيف .

والله يرفع الحجاب بين نفس الانسان وبين النفس التي هي اللوح ، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وينتقش فيها معاني تلك المكنونات ، فتعبر النفس عنها لمن يشاء من عباده « وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدني وما لم يبلغ الانسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً ، لأن الحكمة مواهب الله تعـــالى »

والنفوس مراتب : منها ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصارت كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، ولا تقبل الاصـــلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآبدين ، ومنها مالم ينتبه إلى حد الدين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية او التصقيل .. . ونفوساً قد انغمست في تأمل الجبروت وانخرطوا في سلك القدس مستديمين لشروق نور الحق في أسرارهم على الدوام »(١) النفس الخبيثة تألف دنياها وتود ألا تفارقها أبداً ، فالاخرة دار غربة لها ، لأن الآخرة دار المتقين ومثوى الـكافرين النـــار .

لو سألنا الغزالي : ما أول ما خلق الله ؟ يجيبنا بأن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد ، وهذا الشيء الواحد يسميه الغزالي مرة عقلاً مستشهداً بقول محمد (ﷺ) : « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل حتى يستكمل به فأقبل ، ثم قال له أدبر حتى يستكمل بك جميـع العالم دونك فأدبر » ، ويسميه مرة قلماً ، وهذا الذي يعبر عنه بالقلم ، كما قال عليه السلام :

---

(١) أورده أبو بكر عبد الرزاق في (النفحات الغزالية) ص ١٣٣ عن معارج القدس للغزالي .

« إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال وما أكتب ؟ قال ما هو كائن إلى يوم القيامة ... »

يقسم الغزالي العالم إلى ثلاثة طبقات :

١ ـ طبقة العقول

٢ ـ طبقة النفوس

٣ ـ طبقة الأجسام

بعد أن يقسم الغزالي العالم إلى هذه الطبقات الثلاث يتابع قائلاً :
« وكما أن الجسم هو البدن يتأثر من القوى المركبة فهو لا يؤثر ، والعقل العملي يؤثر في القوى الحيوانية ويتأثر من العقل النظري ، والقوى الحيوانية تتأثر من العقل والعمل وتؤثر في الجسم وأعضاء البدن ، فكذلك فافهم أن جميع أفعال الله تنقسم إلى هذه الأقسام متأثر لا يؤثر ، مؤثر لا يتأثر ، فالمتأثر الذي لا يؤثر هو أجسام العالم ، والمتأثر الذي يؤثر في النفوس فتتأثر من العقول ، وتؤثر في أجسام السماوات بالتحريك ، والعقول تؤثر ولا تتأثر بل كمالاتها حاضرة معها ليس لها استكمال ، وإن كانت تلك الكمالات من ربها وخالقها ومبدعها تعالى وتقدس »(١)

إنه من المعلوم أن الحقائق الإلهية لا تنال بنظر العقل ، بل ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، لكن الغزالي يعتقد أن الكشف الباطني واليقين الشخصي مما يثبت لنا وجود الله ، لأن نفس الانسان هي قبس من نور الله .

والله واحد أحد ، لم يكن له ولد ولا صاحبة ، هكذا يقرر

---

(١) معارج القدس ص ٩٩

الغزالي ، لكن لو قلنا للغزالي : إن المخلوقات كلها مفطورة على الازدواج لطيفها وكثيفها ، معقولها ومحسوسها ففي المركبات ازدواج وفي البسائط ازدواج ، وبين البسائط والمركبات ازدواج ، والنفوس بواسطة الأفلاك معطية ، والعناصر قابلة ، وبين المعطي والقابل نتائج ومواليد ، ومن المعادن والنبات والحيوان والانسان ، وبين العقل والنفس ازدواج ، كما بين القلم واللوح ازدواج ، لو قلنا كل ذلك للغزالي محاولين إقناعه بأن الله ليس واحداً أحداً ، لأجاب على الفور وبدون تردد « من له الخلق والأمر - تعالى الله - عن الازدواج ، بدءاً وقبولاً ، سبحانه أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً .

ويزداد تصلب الغزالي بما جاء به عن حديثه عن المعجزات وتعليلها ، لقد حاول تعليلها تعليلاً طبيعياً فقال في التهافت : « وكذلك إحياء الميت ، وقلب العصا ثعباناً ممكن بهذا الطريق وهو أن المادة قابلة لكل شيء ، فالتراب وسائر العناصر تستحيل نباتاً ، ثم النبات يستحيل عند أكل الحيوان له دماً ، ثم الدم يستحيل منياً ، ثم ينصب المني في الرحم، فيخلق حيواناً وهذا بحكم العادة واقع في زمن متطاول ، فلم يحيل الخصم أن يكون في مقدورات الله تعالى أن يدبر المادة في هذه الأطوار في وقت أقرب مما عهد فيها إن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد . لكن كيف تدرك الوحدانية ؟ ومن يستطيع الوصول إليها وكيف؟ كل هذه التساؤلات يجيب عنها الغزالي بكل هدوء وإقناع ، فالوحدانية كما يقول الغزالي تدرك في لمحه خاطفة بارقة ، يبلغها الواصلون العارفون من أهل التصوف بالذوق ، فتستحيل فكرة التوحيد عندهم حالاً ، ويغمرهم من ذكر الله سكر روحي . وقد نشأ عن مبدأ الوحدانية

اعتباران هما : —

١ — اعتبار مؤداه أن الله وحده موجود ، وكل ما عداه لا يوجد إلا بنعمة منه .

٢ — اعتبار آخر هو أن الله وحده المسيّر لهذا العالم .

والله وحده هو كل شيء وهو وحده ذو وجود حقيقي ، أما العالم فأشبه بخيال الظل وبأطياف الأوهام . إلى هنا ربما يقتنع المؤمن ، ولكن هذا المؤمن لو سأل الغزالي : كيف هي رؤية الله ، ذلك فقط ليطمئن قلبي ، لأجابه الغزالي : إنه يتعذر على البشر أن يروا حقيقة الله لأنه محتجب وراء سبعين حجاباً لو أزاحها لأحرقت قوة نوره الكائنات .

والله العلي القدير لماذا أوجد الخير والشر ؟ الله يريد الخير كما يعتقد الغزالي من أجل الخير ، ولا يريد الشر من أجل الشر ، وإنما جعله لما يحتويه من الخير ، وعليه فالشر عرض والخير جوهر ، لذا كانت العناية الإلهية تكتنف العالم بأسره .

هكذ يجيب الغزالي على الأسئلة التي تراود أذهان معظم المؤمنين بكل هدوء وبساطة ودون تعقيد . ويستغل المؤمن سمة أفق الغزالي وقلبه الكبير للاجابة على كل ما يراود ذهنه فيسأل : هل من سبيل لمعرفة الله ؟

يرد الغزالي إن الله في عجائب ما صنع مكنون في سر العالم الذي نظم في الشمس والقمر والأفلاك ، وفي الانسان هذه المعجزة الكبرى ، حتى إذا عرف الانسان الله أحبه ومتى عرفه تبرأ من كل ما في العالم ليصمد في حبه تعالى ، ولذلك كان المحب قوي المعرفة بالذات ، والطاعة بحد ذاتها وليدة المحبة ، ولن تكون طاعة إلا بالمحبة .

هذا هو الغزالي الفيلسوف الذي كان أول عالم إسلامي أقدم على نقد

الفلسفة بعد درسها الدرس الكافي ، والتعمق فيهـا التعمق الوافي . ظل سنة يدرسها ، وسنة في تمحيصها وتمييز الصواب من الخطأ فيها . بدأ نقده للفلسفة الأرسطاطاليسية كما نقلها الفارابي وابن سينا ، لكن ترى ما الذي دفع بالغزالي إلى عملية الهدم هذه لقد ذكرنا أن عملية الهدم هذه كان لها وجه إيجابي وآخر سلبي ، لكن كرادوفو يميل إلى القول برغبة الغزالي في مهاجمة الفلاسفة الذين لم يحسنوا استعمال أساليب العقل في هـــذا الحقل ، ويؤيد كريم عزقول قول كرادوفو وذلك بالاستناد إلى اعترافات الغزالي نفسه كما يقول . يقول دي بور : « إن أمثـال الغزالي معضلة في نظر الفلسفة فأشخاصهم حقائق روحية تحتاج إلى توضيـح » ونأمل أن نكون قـد وضحنا قـدر الامكان فلسفة الغزالي الدينية .

وفي ختام البحث عن فلسفـة الغزالي وأفكاره نقول : إن هناك بعض تعارض وتناقض في آرائه ، لكن الشخصيات العريضة فيها مركز إشعاع يجلي ما قد يـكتنف جوانبها من غموض أو ظلام .

والآن يجدر بنـا الانتقال إلى البحث عن المنهج الذي اتبعه إمامنـا للوصول إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من سعي وراء الحقيقة .



الفصل الخامس

منهاج البحث الّذي اتّبعه الغزالي

منهاج البحث لدى الغزالي نجده بوضوح في كتابه « معيار العلم »

لقد اتبع الغزالي المنطق واعتمد عليه فيمعظم أبحاثه . وفي معيار العلم يوضح الغزالي المنطق توضيحاً تاماً فيقول : « إن المنطق يشمل جدواه العلوم النظرية العقلية منها والفقهية ، فإنا سنعرفك أن النظر في الفقهيات لا يعارض النظر فى العقليات في ترتيبه وشروطه بل في مأخذ المقدمات فقط ، أي ان الخلاف بين العقليات والفقهيات هو النظر من حيث المادة فقط » .

ما فائدة المنطق ؟ « يجيب الغزالي في المعيار ص ٢٧ بأن فائدة المنطق التخلص من حاكم الحس وحاكم الهوى والتمسك بحاكم العقل .

يحاول الغزالي تحليل الاستقراء الناقص والقياس التمثيلي على أنها طريقان من طرق الفقه التي لا توصل إلى اليقين بل إلى الظن ، وهذا هو المطلوب بالفقه .

أرسطو اتبع الاستقراء ، لكن الاستقراء الأرسطوي يختلف عن الفقهي في أن الأخير رجح سلسلة من الجزئيات على سلسلة أخرى

للوصول إلى الحكم الكلي « إن قصور الاستقراء عن الكمال أوجب قصور الاعتقاد الحاصل عن اليقين ، ولم يوجب بقاء الاحتمال على التعادل كما كان بل رجع بالظن أحد الاحتمالين » (١)

قبل أن نتابع الحديث عن الاستقراء الأرسططاليسي ، والاستقراء الفقهي وما يختلف كل منهما عن الآخر ، لابد من كلمة عن المنطق الارسططاليسي وكيف مزجه الغزالي بعلوم المسلمين .

يقول النشار : « يعتبر أواسط القرن الخامس ـ للهجرة ـ من تاريخ الفكر الاسلامي فاصلاً بين عهدين دقيقين ، عهد لم يلجأ المسلمون فيه إلى مزج علومهم بالمنطق والفلسفة اليونانية ، وعهد بدأ فيه المسلمون عملية المزج هذه وخاصة في نطاق المنطق ، ويكاد يجمع علماء المسلمين على أن هذه الحركة الأخيرة قام بها الغزالي » (٢)

نعلم أن أول ما عرف المسلمون من تراث اليونان الفلسفي هو المنطق . لكن هل كان ذلك في العصر العباسي ، كما قال البعض ، أم انه يعود إلى ما قبل العصر العباسي ؟ يجيب النشار على ذلك فيؤكد بالاستناد إلى وقائع ثابتة ، ومخطوطات موجودة بأن المسلمين اطلعوا على الفلسفة اليونانية في صدر العصر الأموي .

وبالنسبة للرواقية هل عرفها المسلمون ؟ يجيبنا النشار على ذلك أن هناك « عناصر رواقية في منطق الشراح والملخصين وفي نقد الأصوليين والفقهاء الهدمي لمنطق أرسطو » ص ١١ لكن ما هي المصادر التي استقى منها المسلمون هذه العناصر : تتلخص تلك المصادر فيما يأتي :

---

(١) معيار العلم .

(٢) مناهج البحث عند مفكري الاسلام ـ د. علي سامي النشار ص ١٣٠

١ ـ من المرجح أن تكون بعض الكتب الرواقية قد نقلت في العصر الأموي .

٢ ـ عن طريق الاحتكاك العلمي والاتصال بالقسس في الأديرة والكنائس وللرواقية أثر كبير على هذه المدارس .

٣ ـ عن طريق المتأخرين من شراح الأوجانون اليونان ، وقد نقلت هذه الشروح إلى العالم الاسلامي وفيها عناصر رواقية كثيرة . وأهم الشراح اليونان الاسكندر الأفروديسى ، وجالينوس ومن المعروف أن هذين المفكرين هاجما الرواقية .

إذن يمكننا أن نقول : إن المنطق الأرسططاليسي قد دخل إلى العالم الاسلامي منذ زمن مبكر ، ثم توالت تراجمه وتكررت ، ووصل بجانبه وممتزجاً به أبحاث أخرى غير أرسططاليسية أضافها الشراح اليونانيون من بعده من مصادر متعددة . ووقف مفكروا الاسلام أمام التراث الأرسططالي مواقف متعارضة .

أما عن الشكاك ، فعرف المسلمون حججهم ، ولايخلو كتاب من كتب الكلام أو الفلسفة من عرض لآرائهم بحيث يكون من العبث محاولة تعيين الكتب التي ذكرت آراءهم كما يقول النشار .

ولقد ذكرنا سابقاً كيف أكد عبد الرحمن البدوي على أن أصل التهافت يعود لرد يحيى النحوي ، وذلك ما قال به البيهقي .

أما أسين بلا سيوس ، فيعتبر أن التهافت للغزالي ليس في معظمه إلا ترديداً لكتب سكستوس أمبريقوس (١)

---

(١) أورده النشار في منهاج البحث عند مفكري الاسلام ص ١٢

بعد ذلك نستطيع ان نعود لنكرر بأن الغزالي يعتبر المازج الحقيقي للمنطق الأرسطاليسي بعلوم المسلمين ، بتلك المقدمة المنطقية التي وضعها في أول كتابه المستصفى ، والتي ذكر فيها أن من لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه قطعاً . وابن تيمية اعترف بأنه « أول من خلط منطقهم ـ المنطق الأرسطاليسي بأصول المسلمين هو أبو حامد الغزالي ، ويعتبر الغزالي أن الجهل بالمنطق هو بعض الحجاب الذي يحول بين الأنبياء والأولياء واللوح المحفوظ بسبب هذا وجهت إلى الغزالي اعتراضات شديدة من فقهاء المسلمين .

لماذا مزج الغزالي منطق أرسطو بعلوم المسلمين ؟ لماذا لم يتبعه على ما هو عليه ؟ ذلك يعود إلى الالتباس الذي وجد في استخدام الاصطلاحات النظرية ، وإلى أن بعض المبادىء في منطق أرسطو تعارض ما جاء به الدين الاسلامي الذي يعد الغزالي حجته .

من ذلك مبدأ العلية الذى اعتبره أرسطو من المقدمات الأولية بالاطلاق فلايمكن القدح في بدهيته ، لكن متكلم أهل السنة الغزالي لم يقبل بهذا المبدأ ، وأورد عليه اعتراضات كثيرة .

مبدأ العلية أو السببية أهم مسألة فلسفية تعرض لها الغزالي ، منشأ القول بالعلية : إننا نشاهد تعاقب حادثتين واحدة بعد الأخرى ، فهيأ للفلاسفة أن الأولى علة الثانية حتماً ، وذلك بدون وجود أية رابطة بين الحادثتين يرد الغزالي « الاقتران بين مايعتقد في العادة سبباً ، وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا وذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لاثبات الآخر ، ولا نفيه متضمن لنفي الآخر مثل الشفاء وشرب الدواء ، الشبع والأكل ، الري والشرب ، الاحتراق ولقاء النار ، وهلم جراً . وليس للفلاسفة من دليل إلا مشاهدة حصول

الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به ، وأنه لاعلة سواه .

خلاصة رأي الغزالي أنه حينما نشاهد تعاقب حادثة بعد أخرى ، نسمي أولاهما سبباً والأخرى مسبباً . لكن مجرد اعتيادنا لمشاهدة هذا التعاقب لايسمح لنا بأن نجعل الحادثة الأولى علة لوجود الثانيـة كما يقول بذلك قانون السببية ، ولا يمكن أن نستدل من تعاقب شيئين بانتظام في مشاهدتنا على أن ذلك يجب أن يكون دائماً لايتصور تغيره دائماً ، ومعنى هذا إنكار السببية في حوادث الطبيعة ، ذلك أن الطبيعة وكل ما فيها لايستطيع إتياناً بفعل لأن الفعل يقتضي سابق إرادة حرة ، واختيار كامل ، أو علم شامل وبالتالي فهي لاتفعل إنما العامل هو الذي جعل منها خصائصها .

أما كيفية هذا التعاقب وغايته وسره فأمور تخرج كلها عن إدراكنا ، ولاتتسع لها القوة البشرية « ومن استقراء عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله مايحكى عن معجزات الأنبياء » وأبين المعجزات كتاب الله الذي « ثبت كونه معجزاً بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة » .

لكن ابن رشد ، تصدى لنقد الغزالي لمبدأ السببية ، واعتبره خطابياً أو جدلياً تارة ، وقولاً سوفسطائياً طوراً في كتابه « تهافت التهافت » .

فطن الغزالي إلى أن نقد مبدأ العلية سيؤدي أخيراً إلى محـــالات شنيعة حتى يجوز عندنا انقلاب الكتاب حيواناً ، وجرة الماء شجرة التفاح وجاز لكل واحد منا أن يكون بين يديه سباع ضارية ونيران مشتعلة ، ولو ترك غلاماً في بيته يجوز انقلابه كلبـاً . . يجيب الغزالي في « التهافت » إن الله خلق لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها ، ولم ندع أن هذه

الأمور واجبة ، ولكن لاشك أنها ممكنة يجوز أن تقع وأن لا تقع ، واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ في أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسخاً لاتنفك عنه . إنه لم ينبت الشمير حنطة . . . . ولكن من استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله مايمكن من معجزات الأنبياء .

لقد كان الدين هو المسيطر الأول على عقل الغزالي وتفكيره ، وما قامت شكوكه الأولى في أحكام العقل إلا من أجل الدفاع عن الدين وحقيقته ، وقد استطاع رد أصل الدين إلى الكشف الباطني ، والإيمان القلبي ، إنه لم يتردد في إخضاع العقل للدين عندما اضطر إلى إثبات معجزات الأنبياء على نقيض مافعل الفلاسفة . إذ كانوا يخضعون الدين للعقل إذ وجدوا بينهما تبايناً ، وهكذا فإن الواقع الحقيقي لنقد العلية عند الغزالي أن هذا المبدأ في السمعيات سيحيل تحقيق المعجزات .

لو سألنا الغزالي عن فائدة المنطق الأرسطاليسي ، لأجابنا بأنه ليس قاصراً على التوصل إلى المجهول بالمعلوم ، بل إنه يشمل تمييز العلم عن الجهل وتمييز العلم عن الجهل معناه تكمل النفس وسعادتها .

لقد ناظر الغزالي أرسطو بسلاحه ، سلاح المنطق ، وذلك في الأمور التي تتعارض والدين . لقد رأينا كيف أن الغزالي أعلنها حرباً ضروساً على الفلسفة مع أنها نتاج عقلي . فهل يعني ذلك أن الغزالي قد غض من قدر العقل ؟

من المؤكد أن الغزالي لم يغض من قدر العقل مطلقاً ، وظل يعرف له قيمته دائماً رغم ما وجهه إليه من نقد في كثير من كتبه « فالعقل يفضل الحس ما في ذلك ريب ، لأنه أفسح منه مجالاً وأوسع موضوعاً »

فهو يدرك غيره ويدرك نفسه ، والمعقولات التي يدركها لاحصر لها [1] ، وهكذا يستوي لديه القريب والبعيد ، ويعرج في طرفه إلى أعلى السماوات رقياً ، وينزل إلى تخوم الأرض هوياً [2] . ويذهب الغزالي في تمجيد العقل مذهباً يحفزه إلى القول : إن الأسرار الباطنة تصبح عند العقل ظاهرة ، وهو يعتقد أن « العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أنه يغلط ، بل يرى الأشياء على ماهي عليه » ولكن هذه الحالة لاتتحقق إلا بعد الموت . والحق أن العقل إذا أخطأ في أحكامه فليس ذلك راجعاً إلى طبيعته ، بل إلى بعد العوامل الخارجية التي تحجب عنه نور الحق ، وترجع هذه الحجبة إلى الخيال والوهم وهما من آثار الحس .

الغزالي رفع شأن الفكر وأخلص للحقيقة ، ولكنه بحث عن الحقيقة في الالهيات ، ولم يبحث ولم يتعرض للحقيقة المطلقة الشاملة لجميع نواحي الوجود . وبحث عن مسائل ما وراء الطبيعة جعله يعترف أن العقل لا يمكنه إدراك هذه المسائل ؟ لكن الشيخ محمد عبده يناقض الغزالي في ذلك ويقول : « إن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحي به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة كالتصديق بالرسالة نفسها » [2] .

ويقول دنيا : - وهكذا يدهش الانسان حين يجد الغزالي واقفاً من العقل هذا الموقف ، وأنه ينحيه عن مسائل ما وراء الطبيعة هذه التنحية

---

(١) راجع العقل والتقليد في مذهب الغزالي . بحث القاه محمود قاسم في مهرجان الغزالي ،

(٢) أورده سليمان دنيا في « الحقيقة في نظر الغزالي » ص ٤٧

مع كل ذلك نستطيع أن نقول ونثبت : ان الغزالي عرف للعقل قيمته وذلك من قوله : « وإذا ذم العقل فما الذي بعده يحمد ؟ وكيف يذم العقل الذي يعرف به الشرع » ؟

ما هي الموازين العقلية التي تقطع الريب وتكشف عن الحق ؟ هي التالية [1] :

١ – ميزان التعادل بأشكاله الثلاثة – الأكبر والأوسط والأصغر .

أ – يرمز الشكل الأول أ هي ب – ب جـ – ∴ أ هي جـ ،
مثاله : أن كل من يقدر على إطلاع الشمس إله – وإلهي قادر على الاطلاع – إذن هو الاله دونك .

ب – يرمز الشكل الثاني – أ هي ب – جـ هي ب – ∴ أ هي جـ ومثاله : القمر آفل ، والله ليس بآفل – إذن ليس القمر بإله .

جـ – يرمز الشكل الثالث ب هي أ – ب هي جـ – ∴ أ هي جـ
ومثاله : موسى عليه السلام بشر ، وموسى أنزل عليه الكتاب ، إذن بعض البشر أنزل عليه الكتاب .

٢ – ميزان التعاند وهو القياس الشرطي المنفصل ، مثاله : (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ومعلوم أننا لسنا في ضلال إذن ، فأنتم ضالون .

٣ – ميزان التلازم وهو القياس الشرطي المتصل ، مثاله : لو كان للعالم إلهان لفسد ، ومعلوم أنه لم يفسد إذن ليس له إلهان .

---

(١) راجع العقل والتقليد في مذهب الغزالي . بحث القاضي محمود قاسم في مهرجان الغزالي .

لكن لو سألنا الغزالي : من أين استخرج هذه الموازين الخمسة لأجابنا على الفور من القرآن الكريم ، وإنه تعلمها منه ، وهذه كما يقول الغزالي موافقة للشروط التي قررها علماء المنطق . هكذا يقدر الغزالي الأدلة المنطقية حق قدرها ، ويجعل التصديق عن طريق البراهين المنطقية في قمة مراتب التصديق الجازم وهذا ما يدل على تمجيد العقل عنده ، وأدنى هـــذه المراتب مرتبة من يقبل القول لأنه يناسب طبعه وهواه .

ما يخفى على العقل نوعان فهناك أمور قـد تدركها بعض العقول ، ولكن معظمها يقف أمامها عاجزاً قاصراً ، وهناك أمور أخرى لا يتسنى إدراكها لأي عقل إنساني . مهما بلغت قوة نفاذه وهي « ذلك ... العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقل ، حتى لم تتصور الاحاطة بكنهه » وهكذا فهناك طور أسمى من العقل هو طور النبوة الذي يكشف لذوي العقل ، ولذوي المشاهدة الصوفية أيضاً عن أمـور لا تدرك بقياس العقل والذوق .

هكذا بعـــد السنوات العشر التي قضاهـا الغزالي في العزلة والخلوة مستعيناً بالذوق تارة ، وبالعلم البرهـاني تارة أخرى ، اعترف أن هنـاك بعض الحقائق التي لا يدركها العقلاء ببضاعـة العقـل ، بل يجب أن يقنع صاحب العقل فيها بتقليد الأنبياء .

فالتقليـد بنظر الغزالي واجب إذن في العبادات التي لهـا حكمتهـا ، والتي لا يطلع على سرها أحد إلا إذا اقتدى بالنبوة ، والعقل هـو الذي يقر بوجود طور وراءه كما تبين له من قبل أنه هـــو نفسه طور وراء الحس والتمييز .

وهنا نستطيع أن نقول بكل ثقة : إن دمشق هي مسرح التحول الروحي

الكامل في حياة الغزالي حيث فيها قضى أكثر أيام عزلته وأغزرها .

يقول الغزالي : إن العلوم التي ليست ضرورية ، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ، يختلف الحال في حصولها . فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم . فالأولى تسمى إلهاماً لا يتطلب تدرجاً من المقدمات إلى النتائج بل تحصل في نفوسهم دفعة واحدة وتنكشف انكشافاً ، فيحصل نوع من الحدس أي من العلم الضروري الذي لا يمكن ذكر مستنده إلى اليقين ، وهذا هو الايمان القوي العملي ، والثاني الذي يحصل بطريق الاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً .

العلم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى :

١ — إلى ما لا يدري العبد من أين يحصل له ؟ وكيف حصل ؟

٢ — إلى ما لا يطلع معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب ، فالأول يسمى إلهاماً ونفثاً في الروع ، والثاني يسمى وحياً ويختص به الأنبياء وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة .

ويذهب الغزالي إلى حد التصريح بأن الذوق يرفع الأولياء إلى درجة يشرق فيها نور الحق في نفوسهم والعلم يقوم فوق الايمان ، والذوق فوق العلم ، لأن الذوق وجدان والعلم قياس واستدلال ، أما الايمان فقبول مجرد عن طريق التقليد وحسن الظن بأهل الوجدان والعرفان[١] .

العلم الذي هو مكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء ، وحقيقة القول فيه إن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها ،

---

(١) مشكاة الأنوار .

وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التالية :

١ – نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل .

٢ – لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل .

٣ – لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة .

٤ – لحجاب مرسل بين المرآة والصورة .

٥ – للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة ووجهها ، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة ، وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها ، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد ، وتارة أخرى تزيله هبوب رياح تحركه ، وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب ، فيتجلى فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ، ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل ، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت .

فينكشف الغطاء في اليقظة حين يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى ، فيلمع في القلوب من وراء ستار الغيب شيء من ذائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي إلى حد ما ، ودوامه في غاية الندور[١] .

هذه المقتبسات تدل على أن أساس المعرفة سواء المعرفة الصوفية أو الأنبياء أو معرفة العلماء هو محاذاة مرآة القلب للوح المحفوظ ، وإزالة

---

(١) إحياء علوم الدين جزء (٨) ص ٣٢

الحجاب الحائل بينها . صاحب الالهام لا يزيل الحجاب بل العناية الالهية تكفيه مؤونة ذلك بخلاف العلم المكتسب فعليه أن يحاول رفع الحجاب وإزالته .

في مثل هذا أمور بغاية العمق وبالتالي المنطق تتوقف عن الرواج ويحل محلها الالهام أو الوحي وما شابه .

ولكن يحذر الغزالي العارف أن يدعي أنه أدرك الذات الالهية ، فضلاً عن أن يزعم الاتحاد بها أو حلولها فيه . فالله يتجلى ظاهراً من جهة أفعاله لكنه يظل باطناً لشدة ظهوره . وبالتالي ينفي الغزالي عن المتصوفة أنهم ذهبوا في التعبير عن استغراقهم في الحق إلى حد القول بالحلول أو الاتحاد أي أن التسوية بين ذاتين لا يمكن أن تحل إحداهما في الأخرى أو تتحد بها ، وشبيه بذلك ما يقع فيه الطفل عندما يسوي بين الصورة الملونة وانعكاسها بألوانها في المرآة مع أن العقل يقرر دون جهد كبير أن هناك فارقاً جوهرياً بين المرآة التي لا لون لها في ذاتها وبين الصورة التي تنعكس فيها : والصبي الغر أو البدائي هو الذي متى سأل إنساناً تنعكس صورته في المرآة ربما ظن أن الانسان قد انتقل فعلاً إلى المرآة وحل فيها .

ثم إن الحلول لا يتصور بين عبدين فكيف ، يتصور بين العبد وربه الحلول الحقيقي ؟ يقول الغزالي : هو انطباق جوهر على جوهر ، أو جسم على جسم ، أو عرض في جوهر ، وهذا يستحيل إذا كانت النفس حادثة ، ولا وجود لها إلا بإرادة خالقها فكيف يتصور عقلاً أن تكون هي هو ؟ وإذا نحن سلمنا بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحد فكيف لا نسلم به لجميع النفوس ، وعندئذ يصبح العالم كله آلهة (١) .

والروافض زعموا أن الله سبحانه وتعالى حل في نفس علي بن أبي

---

(١) راجع بحث محمود قاسم في مهرجان الغزالي دمشق ص ١٧٣ لعام ١٩٦١

طالب ، وقد زعموا ذلك في حياته رضي الله عنه . فأمر بإحراقهم بالنار فلم يرجعوا واتخذوا من مسلكه تجاههم دليلاً جديداً على ألوهيته إذ قالوا : إن رسول الله ﷺ قال : « لا يعذب بالنار إلا ربها » وهذا الحق البالغ - يتابع الغزالي - لدى الروافض دليل يذكره الغزالي على فساد فكرة الحلول التي وصفها في كتابه فضائح الباطنية بأنها « ضرب من الحماقة ويعرف بطلانه بالنظر العقلي » .

« أما ... الاتحاد فهو أظهر بطلاناً من الحلول ، لأن قول القائل : إن العبد صار هو الرب ، كلام يتناقض مع نفسه « إنه في حالة الاتحاد بين ذاتين ، إما أن تظل كل منها موجودة ، ومعنى ذلك أن إحداهما لم تصدر عن الأخرى ، بل تظل كل منها قائمة بنفسها ، وإذن فليس هناك اتحاد . مثال ذلك أن الارادة والعلم والقدرة توجد في ذات واحدة ، ولكنها ليست متحدة ، لأنه يبقى من المقرر أن الارادة غير العلم والقدرة ، وكذا الأمر بالنسبة إلى كل من الصنفين الآخرين .

أما الاحتمال الثاني ، فهو أن يقال: ربما تفني إحدى الذاتين وتظل الأخرى موجودة ، وهنا يلجأ الغزالي إلى استدلال عقلي يقرر له أنه لا يمكن الحديث هنا عن نوع من الاتحاد ، إذ كيف يتحقق الاتحاد بين موجود ومعـــــدوم .

أما الاحتمال الثالث والأخير ، فهو القول بانعدام الذاتين معاً ، ولكن ليس المرء في حاجة إلى بيان فساد هذا الاحتمال ، إذ ينبغي الحديث هنا عن الانعدام لا عن الاتحاد (١).

والآن ما عناصر الاستقرار الفقهي الذي سار على نهجه الغزالي ؟

(١) راجع بحث محمود قاسم في مهرجان الغزالي دمشق ص ١٨٣ لعام ١٩٦١

للاستقراء الفقهي عنصران: استقراء سلاسل الجزئيات أولاً، ثم ترجيح تلك السلاسل على الأخرى واستخلاص الحكم العام نتيجة لهذا الترجيح «أما ضعف القياس التمثيلي، فناتج عن أن المقدمة الكبرى فيه ظنية. لم يعالج الغزالي هذا القياس علاجاً أصولياً بحتاً [1]. ثم يبحث بعد ذلك في قياس العلة وهو قياس اللم عند المنطقيين، وقياس الأدلة وهو قياس الآن عند المنطقيين، ويدعمها بأمثلة فقهية.

والكتاب الثاني الذي تجد منهاج الغزالي فيه موضحاً هو محك النظر حيث تسوده أبحاث أصولية، وفيه وضح اصطلاحات جديدة علاوة على ما وضح من اصطلاحات في كتاب المعيار، فيستبدل كلمتي التصور والتصديق بكلمتي معرفة وعلم متابعاً في ذلك النحويين، كما أن الحد الأوسط في القياس عند المناطقة يسمى علة عند الأصوليين، ويستخدم الغزالي هذه الكلمة الأخيرة.

«ثم لا يكتفي الغزالي باستعارة ألفاظ الفقهاء والمتكلمين، بل يضع هو نفسه لبعض الموضوعات اصطلاحات جديدة فيسمي القياس الحملي بميزان التعادل .. ويردد الغزالي أن المنطق لا ينبغي أن يختلف المسلمون فيه عن اليونانيين إلا في الاصطلاحات، ولا مشاحة في الألفاظ» [2]

يرى الغزالي أن المنطق الأرسططاليسي هو المنطق القويم، باستعماله يتخلص المسلمون من الخطأ في الاستدلال في مختلف علومهم، وكان يزعجه جداً استخدام الأصوايين لغير هذا العلم، وفي ذلك يقول في مقدمة المستصفي:

---

(١) عن المعيار ص ١٠٥-١١٤ أورده علي النشار في «المنهاج» ص ١٣٣

(٢) منهاج علماء المسلمين في البحث العلمي - النشار ص ١٣٤

« إنه من لا يحيط به المنطق ـ فلا ثقة بعلومه أصلاً » . وفي القسطاس يقـول الغزالي : « لا أدعي أني أزن بها ـ بقوانين المنطق ـ المعارف الدينية فقط ، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والفقهية والكلامية وكل علم حقيقي غير وضعي ، فإني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين وكيف لا وهو القسطاس المستقيم » .

في « المنقذ من الضلال » يدعي الغزالي رأياً جديداً يهدم به كل أفكاره السابقة . ولهذا قيل : إن آراءه متضاربة ومتناقضة حيث يقول : « أما المنطقيات ، فلا يتعلق شيء منهـا بالدين نفياً باتاً » ويستطرد الغزالي قائلاً : هناك علتان تهدمان المنطق الأرسططاليسي من أساسه :

١ ـ قصور البرهان الفلسفي عن أن يصـل بالانسان حين يطبقه في الالهيات إلى درجة اليقين . نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للـــبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، ولكنهم عند الانتهـاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل المنقذ ص ٩٣ .

٢ ـ إذ ربما ينظر في المنطق من يستحسنه ويراه واضحاً فيظن أن ماينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الالهية » منقذ ص ٩٧ ، لهاتين العلتين هدم الغزالي فكرته الأولى عن المنطق باعتباره منهجاً من منـاهج البحث الموصلة إلى اليقين في جميع فروع المعرفة الانسانية .

وعاد يتلمس الغزالي طريق المعرفة في الكشف الصوفي ، أو بمعنى أدق في التجربة الباطنية ، فالغزالي إذن تبين له آخر الأمر ماينتجه تطبيق منطق أرسطو على المسائل الاسلامية ، وخاصة الالهية من تناقض.

لقد بينا سابقاً كيف استعمل الغزالي الكشف الصوفي ، وأظهر عجز العقل في الوصول إلى الحقائق الالهية . يقول ابن تيمية : « ثم أتى أبو حامد فدعا إلى مزج المنطق بعلوم المسلمين ، وإنما كثر استعمالها في زمن أبي حامد ، فإنه أدخل مقدمة في المنطق اليوناني في أول كتبه .... ثم غير الغزالي فكرته عن المنطق ... وبين في آخر كتبه أن كتبهم فاسدة لاتوصل إلى يقين ، وذمها أكثر مما ذم طريقة المتكلمين » .

هكذا اتبع الغزالي في بدء طريقه المنطق الأرسطاليسي بعد أن مزجه بعلوم المسلمين . ولذا يكون المفكر الاسلامي الأول الذي روض المنطق الأرسطاليسي ، وجعله يتلاءم والفكر الاسلامي . لكن بعد رحلة التصوف اعترف بأن المنطق لا يفي بالحاجة ، بل هناك الكشف الصوفي الذي يسير بالانسان إلى عين الحقيقة الالهية ، وحقائق ما وراء الطبيعة .

ونجد تطبيق الغزالي لمنهجه في أغلب كتبه :

في «معيار العلم» و «المستصفى» طبق المنهج الأرسطاليسي الممزوج بعلوم المسلمين ،

وفي «مشكاة الأنوار» وغيرها كثير طبق الكشف الصوفي من أجل اليقين .

لكن ماذا حدث بعد الغزالي ؟ هل عاد نظار المسلمين إلى الاشتغال بالمنطق الاسلامي أم أنهم تابعوا دعوة الغزالي الأولى إلى الأخذ بالمنطق الأرسطاليسي ؟ يجيبنا على هذا السؤال المفكر الاسلامي الأكبر ابن تيمية : « لكن بسبب ما وقع في أثناء عمره وغير ذلك ، صار كثيراً من النظار يدخلون المنطق اليوناني في علومهم . حتى صار من يسلك طريق هؤلاء من المتأخرين يظن أنه لاطريق إلا هذا » .

هل قبل فقهاء أهل السنة هذا الفن من المنطق مرة أخرى ؟

نرى الجواب عند ابن تيمية : « ما زال العقلاء والفضلاء من المسلمين وغيرهم يعيبون ذلك ويطعنون فيه ، وقد صنف النظار من المسلمين في ذلك مصنفات متعددة . وجمهور المسلمين يعيبونه عيباً مجملاً لما يرون من آثاره ولوازمه الدالة على ما في أصله مما يناقض العلم والايمان ، ويفضي بهم الحال إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال »[1] .

ما موقف علماء المسلمين من الغزالي ومنطقه ؟ بالحقيقة ـ علماء أصول الدين وأصول الفقه ـ تابعوا ما دعا إليه الغزالي في كتبه العديدة من مزج المنطق الأرسطاليسي بالأصول والكلام ، وهكذا حلت الأدلة الأرسطاليسية محل أدلة النظر الكلامية ، وتغلغل المنطق الأرسطاليسي في صميم المسائل الكلامية والأصولية منها ، وذهب كثير من مفكري الأصوليين إلى أن تعلم المنطق فرض كفاية على المسلمين متابعين الغزالي في قوله : « إن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلاً »

لكن : هل وافقت جميع الفرق على المنطق الأرسطاليسي ؟ الجواب نجده عند بعض علماء المسلمين أمثال أبي الوفاء بن عقيل ، والقشيري ، والطرطوشي الذين هاجموا الغزالي هجوماً شديداً .

وهكذا اشتدت حركة العداء نحو المنطق الأرسطاليسي مما جعل الفقهاء الذين كانوا يصبون إلى تعلم المنطق ـ يتعلمونه خفية ـ يقول ابن الصلاح : « .... إنه كان ينكر هذا الكلام فأبو بكر وعمر وغيرهم وصلوا إلى الغاية من اليقين ولم يكن أحد منهم يعرف المنطق » وهوجم

---

(١) راجع النشار في منهاج علماء المسلمين في البحث العلمي ص ١٣٣ وما يليها .

أصحاب المنطق مهاجمة شنيعة لدرجة إحراق كتبهم وحرمهم التعليم .

في وسط هذه البيئة المغمورة بالعداء الفـاضح لأهل المنطق أطلق ابن الصلاح فتواه المدوية « المنطق مدخل الفلسفة ـ ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين وسائر من يقتدى به » وهـذه الفتوى كان لهـا أكبر الأثر لدى علمـاء المسلمين . ولا يكتفي ابن الصلاح بهذه الفتوى القاطعة بل يزيد ويفرض عقاباً على أهـل المنطق « إن على ولي الأمر أن يخرج معلمي المنطق الأرسططاليسي من المـدارس ، وأن يعرضهم على السيف حتى يستتابوا » .

وهكذا ذهبت جهود الغزالي هباء وهوجم المنطق الذي اتبعه هجومـاً عنيفاً وشنيعاً ، وقضي عليه ، وانقسم القائلون بتحريم المنطق إلى قسمين :

١ ـ قسم يرى أن المنطق الأرسططاليسي من علوم اليهود والنصارى ولا يجوز الاشتغال بعلوم هؤلاء .

٢ ـ أما القسم الثاني فيرى أن القول بتحريم المنطق لاشتغال اليهود والنصـارى به قول خاطىء ، لأن معنى هـذا تحريم الطب وتحريم الأكل والشرب لأن اليهود والنصارى يشتغلون بها . وإنما العلة في تحريمه هو أنه إذا كان ممزوجاً بإلهيات الفلاسفة المخالفة لعقائد المسلمين ، يخشى على المشتغل به من تمكين تلك العقائد الفلسفية فيه ، فيؤدي إلى الابتـداع كما هو عند المعتزلة ، أو إلى الكفر كما هو عند الفلاسفة .

هل اقتصر نقـد المنطق الأرسططاليسي على ما ذكرناه ؟ أم اتجـه منتقدوه وجهة أخرى أعني وجهة أكثر منهجية ؟

بالحقيقة أن النقد توجه وجهة أخرى على يد مفكر الإسلام العظيم تقي الدين ابن تيمية (٦٢١) حيث اتخذ الهجوم وجهة منهجية تقوم على أسس منطقية ، ولم يكتف ابن تيمية بالقول بأن المنطق يخالف صريح المنقول ، بل اعتبره أيضاً مخالفاً لصريح المعقول .

يقول النشار : إن عمل ابن تيمية لم يكن هدمياً فحسب ، بل كان فيه جانب إنشائي ، فقد حاول أن يضع بجانب نقده للمنطق الأرسطاليسي منطقاً آخر إسلامياً .

حتى الآن عرفنا موقف علماء المسلمين من المنطق الأرسطاليسي ، وهو الموقف المعادي لهذا المنطق ، لكن ما هي العلة الحقيقية لنقدهم للمنطق الأرسطاليسي ؟ هل في هذا المنطق شيء يخالف روح الاسلام ، وإذا كان ما هو ؟

عرفنا أن المنطق الأرسطاليسي يقوم على المنهج القياسي الذي هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري ، وهذا المنهج يخلو من التجربة وهي ما يقوم عليها روح الاسلام . ولهذا المنهج الاسلامي التجريبي نستطيع أن نستشف سبب عداوة الاسلام للفلسفة ، وكذلك نستطيع أن نفسر سر هجوم علماء المسلمين على الغزالي في محاولته المزج بين المنطق الأرسطاليسي وعلوم المسلمين ، وقد رأينا تحول الغزالي في أخريات حياته عن هذا النهج إلى التجربة الباطنية والكشف الصوفي .

والآن لو تساءلنا : لماذا انتقل الغزالي من المنطق إلى التجربة الباطنية ؟ لكان الجواب ببساطة هو البحث عن الحق فمن أجله سار في جولات يبغي الوصول إلى أقوم الطرق للمعرفة الصحيحة وللحق اليقين ، من أجل البحث عن الحق ألف ما ألف من كتب ، ومن أجله هام في فجاج

الأرض يبتغي الوسيلة إلى الهداية إلى أرشد سبيل ، من أجل الحق تبتل إلى الله تاركاً الدنيا وزخرفها ، معتكفاً في دمشق في مسجدها الأموي ، وفي بيت المقدس في مسجد الصخرة » .

من أجل الحق استسلم للشك في مراحله الهادئة والعنيفة ، من أجله ناضل الفلاسفة ، وفند كثيراً من آرائهم .

ومن أجل الحق رسم المنهج الذي يعتقد أنه يوصل إليـــه إلى الحق الخالي من الظنون [1] .



(١) راجع بحث عبد الحميد حسن في مهرجان الغزالي دمشق ١٩٦١ ص ٧٥٤

الخاتمه

قيمة الغزالي

بعد كل ما كتبناه نتساءل ما الجديد في الغزالي ؟ أو ما قيمة الغزالي ، وما هو فضله على العالم الاسلامي ؟

هذه هي الأسئلة تراود ذهننا بعد أن رأينا أن بعض كتبه مستقاة من أصول يونانية خاصة « تهافت الفلاسفة » و « مشكاة الأنوار » وكتب أخرى ، « الاحياء » لها أصول عربية ، وفي المنطق ألم يروض المنطق الارسططاليسي ؟

الجواب واضح وهو أن جهود الغزالي والجديد فيه تتلخص في الأمور التالية :

١ ـ عاد بالناس من الجري في أثر النظريات والجدل ، والفقه والمنطق واختلاف المذاهب إلى الحياة الحقيقية والاتصال الملابس للدين والسنة والكتاب ، بل بالأحرى إلى روح الدين ذاته ولبابه دون القشور والسطوح والأغشية .

٢ ـ الغزالي في وعظه وأخلاقياته ، وتعاليمه النفسية عاد فأدخل عنصر الخوف ، فقد جعل في كتابه « المنقذ من الضلال » وغيره من الكتب يؤكد وجوب إلقاء الرعب والوجل في نفوس العامة منادياً بأن الأمر لم يعد يستوجب الملاينة والمصانعة والرفق والتأمل ، وجعل الخوف من النار الباعث الأكبر على هدايته واجتنابه الضلال والهوى .

٣ – الصوفية ، بلغت بفضله ونفوذه وتأثيره مكاناً ثابتاً وطيدا في الاسلام، وليس من شك في أنه لم يكن أول من أدخلها في الاسلام . فقد كانت قائمة قبل ظهوره .

٤ – ربطه بين الفلسفة الأفلوطينية وبين العقائد الاسلامية ، بتأويل للآيات القرآنية على نحو يقرب بين الاثنين .

٥ – إبرازه لهذه الآراء الأفلوطينية المحدثة في ثوب إسلامي خالص يبدو أنه مستمد من القرآن والسنة استمداداً خالصاً لا أثر فيه لأي مؤثر غير إسلامي .

٦ – أول من أدنى الفلسفة ، وقرب بحوثها الدينية والالهيات من متناول الذهن العادي ، وتعاطي الناس عامة لها ، وكانت من قبله محفوفة بالأسرار ، لايدركها غير أصحابها والراسخين فيها .

لقد استطاع بالمزج والتفاعل بين الفلسفة اليونانية وبين العقائد الاسلامية متمثلة في الكتاب والسنة أن يعطي للفلسفة حق المواطن الكامل في داخل الثقافة الاسلامية . فكتابه تهافت الفلاسفة لم يوضع لطلاب الفلسفة وحدهم ، ولم يؤلف للباحثين خاصة ، ولكنه كتب للعموم ، وقربت موارده ومناهله لسائر الواردين والقاصدين ، وهذا هو ما أغضب ابن رشد [١] .

وتأثير الغزالي في عصره لاينكر فهو الذي شطر أهل العلم والولاة شطرين ، أحدهما ينصره والآخر يخذله ، وما زال الفريقان يختصمان حتى عمت شهرته في جميع الآفاق ، ولا أدل على شغل الناس بالغزالي مما رأيناه لغير واحد من المقامات المتشابهة في تأييده .

---

(١) راجع كتابي أحمد فريد رفاعي عن الغزالي ، وعبد الرحمن بدوي في «دورالعرب»

الحقيقة أن تلامذة الغزالي وأصحابه أثر من آثاره ، وهم بدورهم أحدثوا أثراً كبيراً في الحياة الإسلامية ، ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالي في الحياة الاسلامية عناية الناس بمؤلفاته وفتاويه . كما قال الزبيدي : « إن كتابه الوجيز في الفقه وضع له نحو سبعين شرحاً » .

قال السبكي في جواب كتاب أبي العفيف المطري وقد سأله عن الغزالي : « وماذا يقول الانسان وفضله واسمه قد طبق الأرض ، ومن خبر كلامه عرف أنه فوق اسمه » .

هذا هو الغزالي حجة الاسلام وزين الدين ، وهو بكل جدارة مؤهل لحمل هذا اللقب ، فهو العالم المسلم الكبير ، والإمام الحجة الثبت ، والمفكر الجبار الذهن النابغة ، فهو الذي هدم الفاسفة القديمة ليقيم الدين ويعلي بناءه ويقوي أركانه .

وليعذرني القارىء إذا لم أستطع أن أوفي الغزالي حقه ، وخاصة فلسفته العظيمة ومنهاجه القويم .

فلا يعرف فضل الغزالي إلا من بلغ الكمال في عقله . وفي هذا يقول تلميذ الغزالي محمد بن يحيى النيسابوري : « الغزالي لا يعرف فضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله » . أورده السبكي الذي قال : « يعجبني هذا الكلام فإن الذي يجب أن يطلع على من هو أعلى منه في العلم يحتاج إلى العقل والفهم ، فبالعقل يميز ، وبالفهم يقضي ، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوى احتاج من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل »[1] .



(١) أورده عبد الكريم عثمان في سيرة الغزالي ص ١٠٠

مصادر البحث

١ ـ شرح أسرار علوم الدين
تصنيف محمد الحسيني الزبيدي (الشهير بمرتضى)
٢ ـ تهافت الفلاسفة
طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي وأخيه بمصر
٣ ـ مقدمة تهافت الفلاسفة المسماة مقاصد الفلاسفة
تحقيق الدكتور سليمان دنيا ، دار المعارف ١٩٦١ القاهرة
٤ ـ معيار العلم في فن المنطق
طبع على نفقة محيي الدين صبري الكردي ، مطبعة كردستان العلمية
١٣٢٩ هـ مصر
٥ ـ المنقذ من الضلال لحجة الاسلام الغزالي
د. عبد الحليم محمود ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ القاهرة
٦ ـ سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه
عبد الكريم عثمان ، قدم له أحمد فؤاد الأهواني ، دار الفكر دمشق
٧ ـ الحقيقة في نظر الغزالي
سليمان دنيا ، مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، الناشر دار الاحياء
للكتب العربية ، مايو ١٩٤٧ القاهرة
٨ ـ الغزالي مؤلفاته مع مقدمة عنه
أحمد فريد رفاعي ، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦ القاهرة
٩ ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام
ت.ج. ديبور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة لجنة التأليف والنشر
١٩٣٨ القاهرة

١٠ ـ أبو حامد الغزالي
محمد رضا ، ملتزم الطبع محمد محمود صاحب مكتبة الوفد ومطابعها ،
١٩٢٤ القاهرة
١١ ـ الأخلاق عند الغزالي
زكي مبارك ، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ١٩٢٤ القاهرة
١٢ ـ في الفلسفة العربية
كمال اليازجي ، انطوان غطاس كرم ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف
المدرسي ١٩٦٤ بيروت
١٣ ـ في الفلسفة الاسلامية
إبراهيم مدكور ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧ القاهرة
١٤ ـ دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي
عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الاولى ؛ دار الآداب ، بيروت ١٩٦٥
١٥ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام
علي سامي النشار ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤
١٦ ـ النفحات الغزالية
أبو بكر عبد الرزاق ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ القاهرة
١٧ ـ منقذ الغزالي
أبو بكر عبد الرزاق ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ القاهرة
١٨ ـ تاريخ الفلسفة
حنا أسعد فهمي ، مكتب العرب ، ١٩٢١ القاهرة
١٩ ـ مناهج البحث عند مفكري الاسلام
علي سامي النشار ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ القاهرة
٢٠ ـ أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
مهرجان الغزالي في دمشق ٢٧-٣١ مارس ١٩٦١م ١٥-١١ شوال ١٣٨١هـ

٢١ ـ العقل في الاسلام

كريم عزقول ، ١٩٤٦ بيروت

٢٢ ـ الغزالي

البارون كارادوفو ، ترجمة عادل زعيتر ، مراجعة محمد عبد الغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩

٢٣ ـ الغزالي فقيهاً وفيلسوفاً ومتصوفاً

حسين أمين ، من تراث العرب والاسلام ، مطبعة الارشاد ، ١٩٦٣ بغداد

٢٤ ـ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي

تأليف فرانتز روزنتال ترجمة أنيس فريحة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦١




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فهرس المحتويات


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين